أحمد حمود المعمري

عمان وشرقي أفريقيا

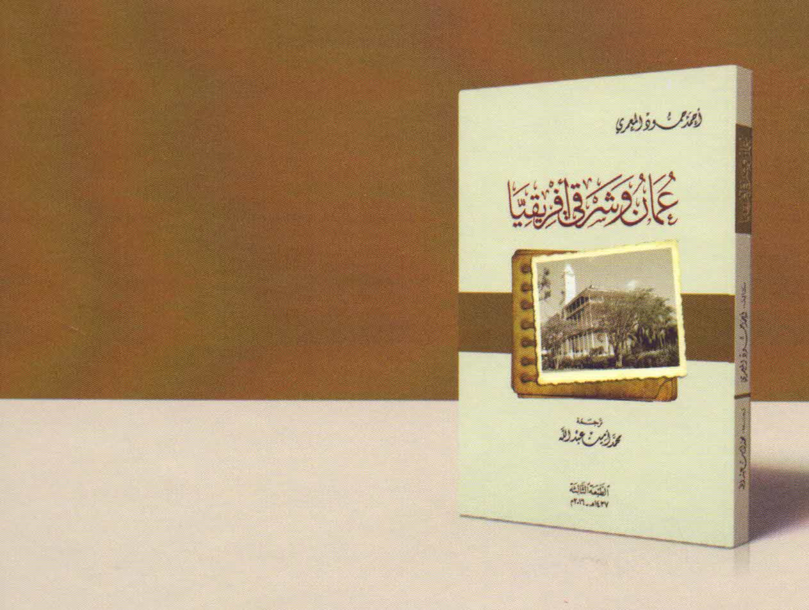


ترجمة

محمد أمين عبد الله

الطبعة الثالثة

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



أراد المؤلف دراسة العلاقة القوية بين الدولة العمانية وحكامها بالجزء الشرقي من أفريقيا وسواحلها، حيث أن العمانيين كانوا معروفين بالملاحة البحرية وقوة اسطولهم البحري مما مكنهم من ضم ذلك الجزء من افريقيا اليها.

بدأ المؤلف كتابه بقدوم العرب الى عمان وبداية الوجود العماني في افريقيا حتى بداية عصر النهضة.

عُمان وشرقي أفريقيا

الطبعة الثالثة
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

سلطنة عُمان - ص.ب.: ٦٦٨ مسقط، الرمز البريدي: ١٠٠
هاتـف: ٢٤٦٤١٣٠٠ / ٢٤٦٤١٣٢٥، فاكس: ٢٤٦٤١٣٣١
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om

عُمان وشرقي أفريقيا

تأليف

أحمد حمود المعمري

ترجمة

محمد أمين عبد الله


بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

اطّلع كثيـر من أصدقائي على مخطـوط هذا الكتاب مـن قَبل أن يأخذ شكله النهائي، وقد قدّموا إليّ بعضًا من مقترحاتهم وآرائهم القيّمة، وإني لهم مَدين بذلك.

وأشكر أسـتاذي عزّت عزيز عبده بوزارة الإعلام بدولة الإمارات العربيّة المتّحدة لنصائحه المفيدة الخاصّة بالأسلوب؛ وصديقي عبدالمنعم المجايني بمركز الأبحاث الزراعية في عُمان علـى مقترحاته الطيّبة التي بدونها ما كان لهذا الكتاب أن يَرى النُور.

وأخص بالشكر الكثير السـيدة بنية البوسـعيدي، فقد كَتَبَت على الآلة الكاتبة النصف الثاني من النسخة الخطّية الأولى للكتاب، وكذا السيدة إيلين بالمر، التي نَسَخت مخطوط الكتاب كلّه بعد إجراء بعض التعديلات عليه.

وفي النهاية أشكر ابنتي ماجدة، وقد سَأَلَت أمّها يومًا، فقالت: يا أماه، ما الذي سيفعله أبي لو أن الورق نفد من العالَم.

أحمد حمود المعمري

مايو ١٩٧٩م - نيودلهي

تقديم

تشغل سلطنة عُمان معظم الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، وتحدّها مياه المحيط الهندي والخليج من جانبين، وتحيط بها رمال الصحراء من جانب آخر.

وعُمان ليست أَرضًا قاحلة كباقي بعض أجزاء الجزيرة العربية، ففيها مصادر للمياه، وإن كانت متواضعة، على جَانِبَي الجبل الأخضر، وقد عمل الشعب العُماني، عبر أجيال عديدة، على زيادة الكميات المُتاحة من المياه عن طريق أَنظمة دقيقة للري، ولهذا فإن حوالي ثلثي السكان يعتمدون على الزراعة، التي كانت المصدر الرئيسي لمعيشتهم طوال قرون عديدة.

ويُعتبر الموقع الجغرافي المصدر الثاني الرئيس من مصادر تشكيل التاريخ العُماني، فالشريط الساحلي لعُمان يمتد لمسافة ١٧٠٠ كيلومتر على المحيط الهندي، وتمرّ على طول هذا الساحل السُّفن المتجهة من الهند إلى أفريقيا، ومن الهند إلى الخليج، أو المتجهة إلى الهند.

ولم يكن عجبًا أن تلعب الرحلات البحرية دورًا كبيرًا في ماضي عُمان، ولم يكن البحارة الرحَّالة العُمانيون طوال ما لا يقل عن خمسة آلاف عام، بغرباء على الهند، والخليج، وشرقي أفريقيا.

ونظرًا لكون عُمان ركنًا خصبًا في الجزيرة العربيَّة، رغم أن الصحراء

تفصلها عن معظم شـبه الجزيرة العربيَّة، فقد كانت تربطها صِلات بالشـرق والغرب، وكان لها تاريخ عريق. وقد تطوَّرت بهـا ثقافة فريدة تأثَّرت بأرجاء عديدة؛ لكن جذورها ضاربة في تاريخ الجزيرة العربيَّة.

ويعود اسـتيطان عُمان إلى العصر الحجري. كما ترجِّح الدلائل الأولى للنشاط الإنساني في السلطنة إلى ٣٠ ألف عام قبل الميلاد على الأقل، ومنذ عشـرة آلاف عام، توفرت الميـاه فيما يُعـرف الآن بالأطـراف (الحواف) الصحراوية لعُمان. وقد خلف الصيَّادون الذين اسـتوطنوها آثارًا تدل عليهم، خاصَّة الأَدوات الحجريَّة الدقيقـة الصّنع التي تُصنَّف ضمـن أكثر الأدوات تطوُّرًا مما كان معروفًا عند إنسان ما قبل التاريخ.

ويعتبر أول دليل على اشـتغال العُمانيين بالبحـر، قديمًا قِدم الألف عام الثالث قبل الميلاد، ففي ذلـك الوقت (تبعًا للكتابات المسـمارية) تعودت سـفن ماجان (عُمان) أن ترسـو بانتظام في أور «Ur»، وفي أجزاء أخرى من بلاد ما بين النهرين السـومرية، تحمل النحـاس، والديوريت (صخر بركاني متبلور)، والمرمر، والبصل، والأَخشاب.

وكان أقدم اسـم مدوَّن لعُمان ـ حوالي ثلاثة آلاف عـام بعد ذلك ـ هو «مزون»؛ ولا يوجد شك لدى الباحثين في أن «سفن ماجان»، قد وُجدت في المنطقة الواقعة عنـد مدخل الخليـج، وأن عُمان كانت مركـزًا لها. وتُعتبر رحلات هذه السفن أَقدم تجارة بحرية لمسافات طويلة في تاريخ العالَم.

ومـا زال التاريخ العُمانـي القديم في أولـى مراحله ـ والـذي يحوطه الغموض ـ يمثِّل تحدِّيًا للمراقب المدقِّـق. فمَن هم الناس الذين بنوا المقابر الحجرية المتراصَّة كخلايا النحل؟ ومَن هم الذين تركوا هذه القطع الحجرية التي عُثر عليها في الخلجـان الصغيرة على طول السـاحل؟ ومَن هم الذين

استخدموا الأدوات المصنوعة من الحجارة التي عُثر عليها في رأس الحمراء.
وأي نوع من الحضارة تلك التي اعتمدت على هذه القنوات والأَنظمة القديمة للري؟

إن بقايا الأواني الخزفية التي عُثر عليها قرب مسقط، وقرب السيب وفي وادي الجزي، وقرب عبري، تُوضح أن عُمان كانت جزءًا من حضارة امتدَّت عبر فارس، وإلى ما يُعرف الآن بأفغانستان، وبلوشستان، وغرب باكستان، في الألف عام الثالث قبل الميلاد.

ولقد عُثر في ١٩٧١م على خنجر من البرونز قرب عبري تم التوصُّل بعد فحصه إلى أنه صُنع في القرن الثاني قبل الميلاد، وأنه فارسي الأصل.

وتتحدَّث أسطورة تحيط باسم مزون إلى ما يشير إلى أن جزءًا من عُمان كان ضمن حضارة ذات أصول فارسية.

ومما لا شك فيه أن أَنظمة الرَّي في شمال ووسط عُمان ترجع إلى أصل فارسي، يعود تاريخه على الأرجح إلى عصر الإمبراطورية التي أَسَّسها سايروس الأكبر.

وإن القُرب الوثيق لعُمان من جنوب إيران يجعل من المنطقي تصوَّر أن عُمان كانت لها روابط تاريخية مع فارس.

وما زالت عُمان تطوي أسرار ماضيها، ولولا تلك السَّنوات من العمل الميداني الدؤوب والصبور في التنقيب عن الآثار، وإلى أن يتم تحليل نتائج هذا العمل، فلن يكون أَمامنا سوى الاعتماد على ما تمَّ العثور عليه حتَّى الآن، نتيجة عمليات التنقيب.

ولقد كانت ظَفَار ـ المنطقة الجنوبية ـ حتى نهاية الأَلف عام الأُولى قبل

الميلاد، أَهم مركز للنشــاط التجاري. وأهم منتجاتها البخور، وكذلك اللبان الذي كانت له قيمة عالية في العصور القديمة كعقار، ودواء ذي رائحة عطرية.

وطالما كانت ظَفَار ـ تُنتج أَحسن البخور ـ وكانت أهم المناطق المصدِّرة له. ومن هناك يصدَّر إِما بحرًا من ميناء سمهرام الذي يعرفه الكتَّاب القدامى باســم موســيبا، وما زالت أطلاله باقيــة بالقرب من صلالــة، أو عن طريق الجمال عبر حضرموت وعبر الصحراء العربية.

وكانت ظَفَار تشــكِّل جزءًا من الثقافة القديمة لجنــوب الجزيرة العربية، وهي ثقافة ســبأ وحمير، ولا يعرف الكثير عن هذا الشــعب، حيث لم تجر حفريات أثرية كثيرة بهذه المنطقة. وتؤكِّد تقديرات اليونان والرومان الأهمِّيَّة التجارية لجنوب الجزيرة العربية التي نَشَـأَت على أســاس تجارة ظَفَار في البخور. ولقد ذهب الجغرافي «بليني» إلى حدٍّ وصف سكان جنوب الجزيرة العربية في ذلك الحين، بأنهم أَغنى شعب في العالَم.

وإن ما نحن متأكِّدون منه الآن هــو وصول العرب إلى عُمان. ففي القرن الثاني قبل الميلاد وصلــت إليها موجات من القبائــل المهاجِرة من المنطقة المحيطة بسد مأرب في اليمن.

وأكبر مجموعتين من القبائل العربيــة التي دخلت عُمان في هذا الوقت، قد عُرفــت أُولاهما باليمنيين، وقد جاءت من جنوب غــرب الجزيرة العربية مباشرة، وعُرِفت الثانية باسم نزار، وقد جاءت عن طريق نجد.

وتقول الرِّوايات: إن إحدى هذه الموجات كانــت بقيادة نصر بن الأزد، والثانية يقودها أبناء مالك بن فهم، وهو أيضًا من نسل الأَزد.

ونحن نعرف أن مالك بن فهم نفســه هو الذي قاد موجة الهجرة الأُولى من العرب إلى عُمان. ويقال: إن اســم عُمان مشــتق مــن عُمَان بن قحطان،

شقيق يمن بن قحطان. ويقول آخرون أنه كانت توجد قرب مأرب قرية تُسمَّى عُمان. وعندما وصل العرب إلى عُمان اكتشفوا مكانًا مشابهًا للمكان الذي يحمل اسم عُمان والموجود في مأرب.

وعلى أية حال، فقد لحقت بهؤلاء أعدادٌ متزايدةٌ عبر القرون، منذ بداية سد مأرب وحتى انهياره في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد.

ولم تكن الهجرات رحيلًا مفاجئًا من وطن قديم يعقبه استيطان فوري لوطن جديد؛ ولكنها عملية انتقال لجيل يعقبه جيل، حيث تنتقل قبيلة رغمًا عنها من عالمها الذي أصابه الدَّمار، فأصبحت فيه لا تجد به ما يغريها على البقاء، فتمضي موسمًا أو اثنين حيث تجلب العواصف الممطرة الحياة إلى الأرض الجافة، وحتى تصل في النهاية إلى أرض خصبة، تجري فيها مجاري الماء، وتنمو فيها الأشجار، وتنتشر فيها المزارع التي تمتلىء بأشجار الفاكهة من كل الأنواع.

ولم تصبح هذه القبائل العربية سكانًا مقيمين إقامة دائمة في عُمان إلا بعد دخولها الإسلام وطَرد الفرس منها.

فمن الطبيعي أن عُمان كانت مأهولة بالسكان عندما وصل العرب إليها، ولنا أن نتوقَّع أن العرب المهاجرين قد جاءوا إليها مثل أَسراب الجراد القادم من الصحراء. فالجوع والإصرار دفعهم إلى أَخْذ ما يحتاجونه، حتى لو قاتلوا من أجل ذلك إذا دعت الضرورة.

ولقد استوطن العرب أَساسًا قلب عُمان، في الجبل الأخضر، والوادي المحيط به الذي تجري فيه المياه، وفي الشرقية. ولم يكن وجودهم على الساحل كبيرًا. وكان سكان الساحل خاضعين لمَلِك من أصل فارسي هو ملك هرمز، بينما كان سكان الجبال متمسكين باستقلالهم.

وكانت عُمان من أولى الدول التي اعتنقت الإسلام في عهد النبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام. كما كان التجار العُمانيون طليعة الذين قاموا بالتجارة بين عواصم الصِّين الإمبراطورية وبين عواصم الإسلام. وأول عربي يبحر مسافة ٧٠٠٠ كيلومتر من خليج كانتون ثم يعود، هو أبو عبيدة، وهو عُماني، وقد أبحر إليها في القرن الثامن بعد الميلاد، أي قبل حوالي ٨٠٠ عام من اكتشاف كولوموس لأمريكا. وكانت جرأة أبو عبيدة ـ مثله مثل كولومبوس ـ خطوة دفعت كثيرين من بني وطنه لتقليده، وهم أُولئك الذين سيطروا على طرق التجارة إلى شرقي أفريقيا والهند، وما جاورها.

في حوالي القرن العاشر كانت العاصمة العُمانية ـ صحار ـ من أَهم الموانئ البحرية المطلَّة على المحيط الهندي. وَوَصَفَها جغرافي معاصِر لتلك الفترة، هو الاصطخري، بأَكثر مُدن عُمان ثروةً وسكانًا. وأضاف قائلًا: إنه من غير الممكن أن تجد على شاطئ البحر الفارسي أو في كل أرض الإسلام مدينة أكثر ثراءً بالمباني الجميلة أو البضائع الأجنبية من صحار. وقد تهدَّمت هذه المباني الكبيرة في صحار منذ وقت طويل؛ لكن قلهات ـ وهو الميناء العُماني الذي حَلَّ محل صحار ـ قد بقيت منه آثارٌ تشهد على عظمته القديمة.

وقد اشتهر العُمانيون في العصور الوسطى بأنهم بحارة وتجار.

وأنجبت الطائفة الإباضية ـ وهي العقيدة السَّائدة في عُمان ـ عددًا من الزعماء الدينيين البارزين، ولعب العُمانيون، الذين أقاموا في البصرة بالعراق لفترة أثناء القرون الأُولى للإسلام، دورًا أساسيًّا بين النخبة المثقَّفة في العالَم الإسلامي. ومن بينهم الشيخ الخليل بن أحمد، الذي كتب أَول قاموس عربي.

وفي السنوات الأُولى للقرن السادس عشر عندما ظهرت سفن أوروبية ـ وهي السفن البرتغالية ـ في المياه العُمانية، فإن القوة البحرية العُمانية أُصيبت بتدهور خطير. وسقطت المدن الساحلية أمام الأسطول البرتغالي، رغم أنهم لم يتوغلوا إلى داخل عُمان، وظلّت عدّة مُدن ساحلية؛ منها مسقط، في يد البرتغاليين طوال ١٥٠ عامًا.

وفي عام ١٦٢٢م عندما طُرِد البرتغاليون من هرمز ـ وهي قاعدتهم في مدخل الخليج ـ أَصبحت مسقط معقلهم الأَساسي في الشرق الأدنى. وكانت دفاعات مسقط مدعَّمةً تدعيمًا قويًّا وتتكوّن من قلعتين كبيرتين، وسور به أبراج للمدافع، وكثير من التحصينات الفرعية.

ثم واجهت قوة البرتغاليين الاختبار عندما اتَّحدت ضدّهم قوّات القبائل في داخل عُمان على يد الأئمة من أسرة اليعاربة.

وفي عام ١٦٥٠م طرد البرتغاليون من مسقط. وكان طردهم، على يد الحاكم اليعربي سلطان بن سيف، إيذانًا بفترة ليس لها مثيل من القوّة والرخاء لعُمان. فلقد أغار الأسطول العُماني خلال الخمسين عامًا التالية على الأراضي التي يسيطر عليها البرتغاليون على طول السواحل الهندية والأفريقيا. واستطاعوا قبل نهاية القرن أن يطردوا البرتغاليين من شرقي أفريقيا، وأن يضعوا الأساس للوجود العُماني القوي هناك الذي استمر طوال ٢٥٠ عامًا. وواجه الأسطول البريطاني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر صعوبة في دخول مياه المحيط الهندي، حيث كانت عُمان القوة البحرية المسيطرة في غرب المحيط الهندي.

وبلغ الرخاء التجاري العُماني ذروته في أول عهد أسرة البوسعيد، الأسرة الحاكمة حاليًّا، وكان مؤسّس الأسرة الإمام أحمد بن سعيد قد انتُخب إمامًا

عام ١٧٤٩م، بعد أن قاتل ضدَّ الغزو الفارسي لعُمان. وقد عمل على رفع قدرة الأسطول، واستغل السُّفن الحربية في نقل التجارة في الفترات التي تتوقف فيها الحروب. وفي عهود أبناء الإمام أحمد، نقل مقر الحكومة من مدينة الرستاق في الداخل إلى ميناء مسقط، وهي خطوة ترمز إلى توسُّع النشاط التجاري لعُمان.

وبعد وفاة الإمام أحمد أعظم الحكَّام البوسعيديين الأولين، تولَّى السيِّد سعيد بن سلطان، وقد حكم عُمان من عام ١٨٠٧م إلى عام ١٨٥٦م. وفي عهده تجاوزت الممتلكات العُمانية حدود التوقعات، فشملت زنجبار، وأجزاءً من شرقي أفريقيا، ومن جنوبي إيران، وبلوشستان. وازدهرت التجارة خاصَّة مع شرقي أفريقيا، وتمتعت مسقط بأمن أكثر مما توافر لجيرانها، وتطوّرت إلى سوق هام ليس بالنسبة لعُمان وحدها، بل أيضًا بالنسبة لمنطقة الخليج ككل. واهتم السيِّد بتطوير التجارة في كل ممتلكاته.

وأدخل صناعة القرنفل إلى زنجبار بنجاح وصل إلى أن مزارع القرنفل كانت قبل نهاية عهده مصدرًا لثلث الدخل الحكومي في زنجبار. واليوم تنتج زنجبار ٩٠٪ من إنتاج العالَم من القرنفل. وكانت الآفاق التجارية للسيِّد سعيد تمتد إلى مستوى العالَم، وفي عام ١٨٤٠م أرسل مبعوثه أَحمد بن نعمان بسفينة محمَّلة بالسلع التجارية إلى الجمهورية الناشئة للولايات المتحدة الأمريكية. وكانت عُمان في عام ١٨٤٠م هي أول دولة عربية توفد ممثِّلًا دبلوماسيًّا إلى الولايات المتحدة.

وبعد وفاة السيِّد سعيد قسمت الإمبراطورية البحرية التي حكمها. فقد تولَّى ابنه السيِّد ماجد وخلفاؤه حكم الجزء الواقع في شرقي أفريقيا، بينما خضعت عُمان لحكم أكبر أبنائه السيِّد ثويني. وقد توافق مع تقسيم السلطنة هبوط حاد في الظروف التجارية فتقلَّص إلى حدٍّ كبيرٍ النفوذ البحري العُماني

الذي يعتمد على الملاحـة؛ وذلك نتيجة لظهور الملاحة المنتظمة بالسُّفن التجارية في ثمانينات القرن التاسـع عشـر، ونتيجة لفتح قناة السويس عام ١٨٦٩م. وأدّى اتساع الاستعمار الأوروبي ومد الحماية البريطانية عبر المحيط الهندي، إلى الحدّ بدرجةٍ كبيرةٍ من مصالح ومكاسـب عُمـان في الميادين الدولية.

وأَدّى تآكل أُسـس الرخاء القديم لعُمان، إلى فترة من المتاعب السياسيّة للسلطنة. وتسبَّب التنافس بين الإمام في داخل عُمان، والسلطان في المنطقة السـاحلية إلى الحدّ من دخل الحكومة، وسببت النشـاطات الشيوعية ضد الحكومة آلامًا ومتاعب للشعب العُماني.

وبدأ التاريخ الحديث لعُمان في عام ١٩٦٧م مع أول شـحنة بترول تصدر للخارج، وهو ما وفَّر للبلاد مصدرًا كبيرًا للدخل تحتاجه للتنمية. وبدأ سلطان عُمان وقتئذ السيّد سعيد بن تيمور، في تنفيذ خطط لبعض مشروعات التنمية مسـتخدِمًا دَخْل البتـرول؛ ولكنه لم يتحرَّك بالسـرعة الكافية للاسـتجابة لمطالب الشـعب بالنسـبة للتعليم، والعلاج الطبّي، وغيره مـن الخدمات. وعقب انتقال السلطة إلى جلالة السـلطان قابوس في يوليو ١٩٧٠م، بدأ عهد جديد ومستمر من التنمية والرخاء السريعين.

وكما يشـير عنوان الكتاب «عُمان وشرقي أفريقيا» فإن الموضوع الرئيس هو ما حققته عُمان لشـرقي أفريقيا في مجالات الثقافة، والاقتصاد، والدِّين، والتقاليد، وقد نُوقشت هذه الموضوعات لارتباطها بما كان يجري في عُمان ذاتها.

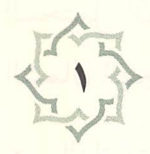
وحتى نعرف عُمـان، فإن القصـة تبدأ بهجـرة العرب مـن اليمن بعد الفيضانات التي أَعقبت انهيار سـد مأرب، وتنتهي بالوضع الحالي لسـلطنة

عُمان. وحيث أن الكتاب يناقش الأحداث التاريخية، فلم يذكر إلا القليل عن الأمور الراهنة في الســلطنة، رغم الإشارة إلى بعض العناصر التي تعمل ضد الرخاء، والتقاليد والثقافة المتميِّزة للبلاد.

ولقد اســتفدت عند التحضُّر لهذا الكتاب من أعمال كثير من المؤلفين؛ لكن مسؤولية محتوياته تقع كاملة على عاتقي.

أحمد حمود المعمري

مارس ١٩٧٩م



الماضي

لا يوجد تاريخ مدوَّن نعتمد عليه في الاستدلال على وجود مستوطنين عُمانيين قبل وصول العرب إلى هذه الأرض؛ ولكن من المعتقد، طبقًا للروايات التي يتناقلها الناس واحدًا عن آخر، أن إحدى العشائر، ويُطلق عليها «البياسرة» قد تكون أول من سَكَن عُمان، ونَشأ فيها الشعب الذي كان يستوطن أرض عُمان قبل وصول العرب إليها.

ووفق الاعتقاد المعاصِر فإن البياسرة إحدى الجماعات التي تعرَّضت لهزيمة في الحرب، بيد أن الرأي الأكثر تداولًا بين أفراد الشعب العُماني هو أن البياسرة عشيرة رفضت الدخول في الإسلام، فكان من نتيجة ذلك أن وقعوا أَسرى حرب، غير أن هذا الرأي لا يمكن قبوله على علاته؛ لأن الإسلام دخل عُمان بعد سنوات من توطُّن العرب فيها؛ ولأن العُمانيين قد اعتنقوا دين الإسلام سلمًا بمحض إرادتهم، فليس هناك أي دليل على أن البياسرة كانوا من أسرى الحرب عند دخول الإسلام إلى عُمان. والبياسرة منتشرون الآن في أجزاء مختلفة من البلاد خاصة في الشمال، وعلى طول الساحل، ويعيشون في ظلٍّ قبائل مختلفة.

وهناك عشيرة أخرى أصغر من البياسرة، هي عشيرة شهوم Shihum وتعيش في الإقليم الشمالي من عُمان، ومعظم أَفرادها من الصيَّادين والرعاة،

وهم يتحدَّثون إلى جانب اللغة العربية اللغة الفارسـية، وتبدو بشـرتهم أكثر سـمرة من معظم العرب، ومن المحتمل أن يكونوا هم أصل سـكان عُمان الشمالية، وقد دفعتهم إلى جبال الشمال الهجمات المتتابعة للغزاة.

وثمة عشـيرة ثالثة أصغر، وهي الزاتوت، وأَفرادها أشـبه بالغجر، ولهم لغتهم الخاصَّة، ومن عاداتهم، أنهم لا يتزوجون من غير نسـاء عشيرتهم إلا نادرًا.

وفي الإقليم الجنوبي من سلطنة عُمان، ظَفَار، يختلف الرعويون، سكَّان جبال القرا، فهـم قليلون، ولهم مظهـر وزي مختلف عن باقـي العُمانيين، ويتكلَّمون لغة، تسـمى الجبالية، إلى جانب اللغة العربية، ويشار إليهم عادة ببيت كثير، والمهرة.

وفي منطقة العاصمة والمُدن السـاحلية الأُخرى يوجد كثيرون من أصل إفريقي، جاء أسلافهم وعاشوا في عُمان عندما كانت علاقة عُمان قوية بساحل شـرقي أفريقيا، وبخاصَّة زنجبار، وأما الذين هم من أهـل هندي، ويُعرفون باسـم اللواتيين، فقد سـكنوا مدينة مطرح التجارية، وعاشوا في حي مغلق عليهم، وما زالوا يحتفظون بلغتهم.

وأكبـر الطوائف العُمانيـة غير العربيـة طائفة البلوش، وقد عاشـوا في مدينتَي مسقط ومطرح، وعلى طول ساحل الباطنة، وجاءوا من ساحل مكران في بلوشستان وجوادر، الذي ظلَّ جزءًا من عُمان حتى عام ١٩٥٨م.

وهناك قبيلة أخرى، تسمى بني بلوش، وأَفرادها من نسل قوة من الجنود، جندت في مكران عـام ١٧٣٦م، وقد اندمجـوا الآن في المجتمـع العُماني ويعيشون كقبيلة عربية في الظاهرة.

وتوجد بين طائفة العرب مائتا قبيلة، ولا يدخـل في مجال هذا الكتاب

تفصيل القبائل العربية التي تعيش في عُمان، ويكفي أن نذكر، أن عُمان مجتمع قبلي، غير أن القوة القبلية الآن أقل مما كانت عليه في الماضي.

وهناك حقيقة هامة تستحق الذكر، وهي، أن العُمانيين، أيًّا كانوا، بدون استثناء، يتميَّزون بكرم الضيافة البالغ، وتقضي تقاليدهم في الضيافة ألا يأكل المضيف حتى يأكل الضيف ويشبع.





عصر ما قبل العرب

استوطن عُمان كثير من الأجانب في الماضي؛ لكن الفرس من بينهم، بصفة خاصَّة، قد لعبوا دورًا ملموسًا في تاريخ واقتصاد البلاد. فقد أقاموا على طول الساحل، ومارسوا سلطتهم من مدينة صحار.. العاصمة الساحلية حينئذ. وتعتبر الأفلاج أهم ما خلفوه وراءهم من تراث في عُمان، وهي نوع من أَنظمة الري يرجع إلى ألفي عام. ووسيلة للحصول على الماء للري بإنشاء قنوات جوفية تحت الأرض وشق طريق من هذه القنوات إلى المنطقة التي يُراد ريّها بأن يخترق القناة على امتدادها ممرات رأسية عند الحدود الفاصلة، بطول يتراوح بين ٢٠ و٥٠ مترًا. ثم تتصل قيعان هذه الممرات بقناة طولية تتدفق منها المياه منحدرة برفق لتصل إلى سطح أقرب مكان يتم ريّه.

وأهم مظهر لهذا النظام في عُمان هو إمكانية الاعتماد الكامل عليه، حتى في فترات الجفاف الطويلة فلا يتوقف تدفق المياه في الأفلاج، وإن كان يتضاءل خلال تلك الفترات، ويعتقد أن هذا النظام قد ظهر في فارس أثناء حكم أسرة أرخميدس Achaemanion (منذ القرن الرابع أو السادس قبل الميلاد)، ثم عمل الساسانيون على تحسينه في الفترة الواقعة بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي، ونقله الفرس إلى عُمان منذ ألفي عام على الأقل. وكان نظام الري بالأفلاج مصدر ازدهار للزراعة في عُمان.

وكشفت عمليات التنقيب عن الآثار، عن أن عُمان كانت جزءًا من حضارة تمتد عبر فارس إلى البلاد التي تُعرف الآن بأفغانستان، وبلوخستان، وغرب باكستان في الألف عام الثالث قبل الميلاد. وتدل مجموعة المقابر الحجرية، وقطع شظايا الأواني والأوعية الفخارية، على طول الساحل، وكذلك الأَدوات المصنوعة من الحجارة، وقطع الأواني الخزفية وغيرها، على أن الحلقات الأولى من تاريخ عُمان كانت عامرة بالحياة.

ويدل أحد الخناجر المصنوع من البرونز الذي عُثِر عليه عام ١٩٧١م في بلدة عبري في داخل عُمان، أنه فارسي الأصل ومصنوع في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وتقول الروايات التي تحدَّثت عن اسم «مزون» أن هذا الاسم يشير إلى جزء من عُمان كان ضمن حضارة تنتمي إلى أصول فارسية.

وقد كان بين عُمان وفارس جوار وثيق، وأنه لمن المنطقي وجود روابط تاريخية قديمة بين البلدين.

❁ ❁ ❁



مجيء العرب إلى عُمان

تقول إحدى الروايات القديمة: إن أول عربي جاء إلى عُمان قادمًا من اليمن هو عُمَان بن قحطان أخو يمن بن قحطان، ومن ذلك الشخص استمدت عُمان اسمها، وهناك قصة أخرى تقول: أنه كانت توجد في مأرب باليمن قرية تسمى عُمان، وعندما وصل العرب إلى عُمان وجدوا قرية مشابهة لها، فأسموها عُمان.

والحقيقة المؤكَّدة هي أن موجات مختلفة من الهجرات من رجال القبائل التي كانت تقيم في المنطقة المحيطة بسد مأرب في اليمن، قد نزحت إلى عُمان واستقرت بها في القرن الثاني قبل الميلاد.

والرواية الأكثر قبولًا تقول: إن إحدى هذه الموجات كان يقودها نصر بن الأزد، والأخرى يقودها مالك بن فهم الأزدي.

ويقال بالنسبة لهجرة مالك بن فهم الأزدي وجماعته أنه كان ضحية اتهام وهو في وطنه الأم، وجهه إليه أحد رجال قبيلته، بأن ابن أخيه قد قتل كلبه وقد اعتبر مالك هذا الاتهام إهانة لا تُحتمل، فقرَّر مغادرة البلاد.

والسبب الأكثر اتفاقًا مع المنطق هو أن تشقق سد مأرب قد أرغم أناسًا كثيرين على مغادرة وطنهم والتجوال بحثًا عن مستقر جديد. وقد لحق

بهؤلاء المهاجرين الأوائل أعداد متزايدة مــن المهاجرين عبر القرون. عندما زادت التشقُّقات في سد مأرب حتى انهار تمامًا في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد.

ولا يوجد ما يدعو للشــك في أن الهجرات لم تكن رحيــلًا مفاجئًا من وطن قديم يعقبه اســتيطان فوري في وطن جديد؛ ولكنه كان عملية مستمرة خلال جيل بعد آخر، وينتقل المهاجرون رغمًا عنهم من وطن أصابه الدمار، ويمرُّون بقفار جرداء بها قليل من أشجار الشــوك، وقليل من الطعام لا يقيم أودهم، ويقاتلوا أناسًــا يســتوطنون هذه المناطق التي تقع فــي طريقهم إلى موقع هجرتهم النهائية، حتى وصلوا أخيرًا إلى أرض خصبة، كثيرة الأشجار، والمزارع، وحدائق النخيل، وأشجار الفاكهة من مختلف الأنواع، هي عُمان.

ولم يكن وصول العرب إلى عُمان يعني الســلام أو الاستقرار لهم؛ لأنه كان في عُمان بالفعل شــعب يقطنها. وكان المجتمع الذي وجده العرب في عُمان هو على الأرجح مجموعات من المجتمعات الريفية المتمتعة بالرخاء، يضمها نظام إقطاعي أرســتقراطي، وتعيش على اقتصاد زراعي منظم يعتمد على نظام الري الذي أدخله الفرس.

وجاءت الهجــرات العربية إلى هــذه المجتمعات، مثل أســراب الجراد القادم من الصحراء. وبدافع من الجوع والإصــرار، فمدُّوا أيديهم إلى كل ما صادفوه. بل ولجأوا إلى العنف عند الضرورة.

واســتمر هذا الحــال، حتى أصبــح العرب القــوة المســيطرة في ذلك المجتمع، تعززهم موجات الهجرات الجديدة التي لحقت بهم.

ويعتقد المؤرخون العُمانيون أن مالك بن فهم الأزدي هو مؤسس عُمان، وأنه أقام خيامه قرب نزوى عند وصوله، وفي ذلك الوقت كانت البلاد تحت

السيطرة الاسمية لحاكم فارسي كان يحكم من عاصمته في صحار. وعندما استقر مالك بن فهم واستوطن هو وقومه، بعث برسالة إلى الحاكم الفارسي يقول له فيها: لقد استقر الرأي على الإقامة في إقليم من عُمان. وأنه لا ينوي إخراج الفرس منها. أما إذا هاجموه، فإنه لا بد وأن يهزمهم ويطردهم من البلاد.

ورفض الفرس ـ وهو ما كان متوقعًا ـ ذلك التهديد من خلط همجي من العرب القادمين من الصحراء. واستعدُّوا للحرب، وانطلقوا من صحار عبر وادي الجزي بقوة كبيرة تضمّ بعض الفيلة، واستعد مالك لمواجهة التحدي.

وتقدَّم الفرس الذين قُدِّر عددهم بثلاثة أو أربعة آلاف نحو سلوت قرب نزوى، حيث واجههم مالك بن فهم بستة آلاف رجل، منهم ألفان من الفرسان يقودهم ابنه هناءة، وتولّى مالك قيادة جيشه فوق حصان أرقط، مرتديًا رداء أحمر اللون، وشالًا أصفر ملفوفًا حول خوذته وصاح بجنوده: «تقدموا معي نحو كل هذه الفيلة لنهاجمها». وهاجموها برماحهم وسيوفهم. فطلب الفرس هدنة. وعادوا إلى صحار، وعاد مالك إلى قلهات.

وعندما بلغ نبأ الهزيمة ملك فارس، استاء وبعث بتعزيزات. وعلم مالك بذلك، فأرسل رسالة أخرى إلى الفرس يبلِّغهم أنه سيطردهم من البلاد إذا لم يرحلوا عنها. وعندما رفضوا ذلك زحف عليهم وهزمهم. وكانت هذه هي نهاية الفرس في عُمان، وبعدها بدأ العُمانيون فترة من الازدهار وتطوير بلادهم الجديدة، ودام حكم مالك سبعين عامًا ومات وعمره ١٢٠ عامًا.

ويعتبره العُمانيون واليمنيون الذين من أصل أزدي جدّهم الأكبر. ولا يزال يوجد في عُمان قرية تُسمَّى منح، وفلج مهجور، يعتقد أن مالك هو الذي بناه.

والمعتقد أن عرب عُمان ينتمون إلى عائلتين رئيسيتين هما: القحطانيون والعدنانيون. وينتمـي الأزد المعروفون باليمانيين إلـى عائلة قحطان، بينما ينتمي النزاريون إلى عائلة عدنان.

وقد اسـتقرّت العائلتان في عُمان. ثم اكتسـب كل منهـا ألقابًا أخرى، وأصبح القحطانيون يُعرفون باسم بني رواحة، والعدنانيون باسم بني ريام.

ومن المثير للاهتمام أنّه توجد في إحـدى المدن العُمانية القديمة، وهي إزكي، منطقتان تسمى إحداهما اليمن، والأخرى نزار.

وقد دخل العدنانيون عُمان في تاريخ متأخر قادمين من الجزيرة العربيّة، واستوطنوا الجزء الشمالي من البلاد.

وعُمان من أول البلاد التي اعتنقت الإسـلام في حياة النبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، وكان ذلك في عام ٦٣٠ ميلادية عندما وصل عَمْرو بن العاص إلى عُمان كمبعوث عن النبي محمّد يطلب دخول العُمانيين في الإسلام. وكان الفرس في ذلك الوقت قد استعادوا السيطرة على المناطق الساحلية من عُمان وحتى البحرين والمنطقة السـاحلية الممتـدة إلى اليمـن. وأصبحت صحار العاصمة لهم مرّة أخرى. وظلّت السيطرة للأزد في داخل عُمان.

وحوالي عام ٦٨٠م تعرضـت عُمان لغزوات جديدة مـن العراق وفارس تحت قيادة الحَجّاج، الحاكم المسـلم للعراق، وظلّت عُمان سبعين عامًا أو نحو ذلك تحكم من الناحية النظرية على الأقـل بحاكم يعيّنه حاكم العراق. ومع نهاية تلك الفترة تحالف أحد العُمانيين ـ وكان قد عيّن حاكمًا ثم عُزل ـ مع الطائفة الإباضية واستطاع أن يفرض سـيطرته تدريجيًا على البلاد. وفي حوالي عام ٧٥٠ ميلادية انتخب الجلندى بن مسعود أول إمام في عُمان.

والإباضية: هي طائفة مسـلمة تؤمـن بالديموقراطيـة الكاملة في اختيار

الخليفة ـ على أساس أهليته ونزاهته والعُمانيون ـ كإباضيين ـ لا يعتبرون أنفسهم خوارج بإيمانهم بالديموقراطية في اختيار قائدهم. وهم يعتبرون أنفسهم مسلمين حقيقيين، وقائدهم يُعرف بالإمام، وهو ما يعني ببساطة الشخص القدوة. ويمنحه شعبه ولاءه وطاعته؛ بحيث يقودهم ويرشدهم ويدافع عنهم ويحميهم من أعدائهم، ويلتزم بالقرآن وتعاليم الرسول عليه الصّلاة والسلام.

وكل هذه القوانين تُعتبر مقدّسة، ولا يمكن بالتالي تغييرها أو معارضتها.

ويتم اختيار الإمام ـ مبدئيًا ـ بواسطة مجموعة صغيرة من العلماء كبار السن، ولا بد، بعد ذلك، من موافقة الشعب، على انتخاب الإمام من خلال التصويت. ولا يمكن انتخاب الإمام المرشّح، بدون الموافقة العامّة عليه.

وقد أصبحت الإباضية عقيدة تجمع حولها العُمانيون في كفاحهم من أجل الاستقلال.

ومنذ انتخاب أول إمام، تعرّضت عُمان لأكثر من عشر غزوات متتابعة على مدى مائتي عام. وكان هدف كل هجوم هو تدمير المجتمع العُماني، ومن المرجح على ما يبدو أن دافع الغزاة كان بسبب تجاهل العُمانيين للالتزام بدفع الزكاة للخليفة. ولقد فشل كل غزو أمام المقاومة العنيفة من العُمانيين دفاعًا عن عقيدتهم وأسلوب حياتهم، بالإضافة إلى وعورة البلاد ومساحتها الشاسعة، وصعوبة المواصلات بها.

ومنذ انتخاب أول إمام في عام ٧٥٠م، جرى العُرف على انتخاب الأئمة. وكان آخر إمام تم انتخابه عام ١٩٥٤م، وهو الإمام غالب بن علي الهنائي، الذي ظلّ في السلطة حتى عام ١٩٥٦م، عندما فرّ إلى السعودية وعاش في المنفى بعد هزيمته.

وكان الأئمة ـ الذين أعقبوا الجلندى بن مسعود ـ من قبيلة النبهاني. وفي عام ١٦٢٤م انتخب ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربي إمامًا، وكان ينتمي إلى قبيلة أُخرى. وتعتبر قبيلة اليعاربة أقدم القبائل اليمانية جميعًا في عُمان، وهي كما يلي في تسلسـلها: اليعربي، العربي، الحميري، الأزدي، اليماني. وكان الإمام ناصر شـخصًا غير عادي. وقــد تم انتخابه في الرســتاق، وقاد عملية انتخابه شيخ عالِم ورع هو خميس بن سـعيد الشقصي، الذي أدار مداولات الشعب عندما دبَّ بينهم انقسام شديد حول أمور كثيرة.

وعندما توفي الإمام ناصر عام ١٦٤٩م خلفه ابن عمه سـلطان بن سـيف اليعربي الذي طرد البرتغاليين من مسـقط في ينايـر ١٦٥٠م، وطاردهم حتى الهند والساحل الشرقي لأفريقيا، وقد بنى أسطولًا بحريًا قويًا من السفن التي اسـتولى عليها من البرتغاليين، وبذلك نجح في أن يجعل من عُمان بسرعة أقوى دولة بحرية في شـمال المحيـط الهندي، وازدهرت تجـارة العُمانيين بصورة لم يسبق لها مثيل.

وبوفاة سـلطان بن سـيف عام ١٦٧٩م، أصبح ابنه بلعرب إمامًا، وبذلك وجد مبدأ الحكم الوراثي للإمامة. ولم يكن حكم بلعرب موفقًا، ومتألِّقًا مثل حكم أبيه. فلقد كان على نزاع مستمر مع أخيه سيف بن سلطان، وتوفي في النهاية في قلعته الجميلة في جبرين عام ١٦٦٢م.

وسعى سيف بن سـلطان اليعربي الذي خلف أخاه، نحو تطوير التجارة وقد شـجع شـعبه على ذلك وكانت عُمان قوية في عهـده، وازدهرت فيها التجارة والزراعة. وتوفي في الرستاق في أكتوبر ١٧١١م.

وفي إطار مبدأ وراثة الإمامة، فإن الذي خلف سـيفًا هو ابنه سلطان بن سيف. وكان الإمام سـلطان متواضعًا، وأنفق كثيرًا من المال الذي ورثه عن

والده، وبالإضافة إلى ذلك فإنه اقترض قدرًا كبيرًا من المال. وبنى قلعة جميلة في الحزم قرب الرستاق. ودرَّب بحريته على أن تكون هجومية بحيث أصبحت مهابة في أنحاء الخليج والمحيط الهندي. وقد أدَّى ذلك إلى أن تكون لعُمان اتصالات بسفن شركة الهند الشرقية، وقوة بريطانيا فيما وراءها، وهو ما كان له تأثيرات بعيدة المَدَى على تاريخ عُمان.

وتوفي الإمام سلطان عام ١٧١٨م، وكان عمر ابنه سيف بن سلطان الثاني اثني عشر عامًا. ورغم اتباع نظام مبدأ الوراثة، فإنه كان أنسب رجل للإمامة، إلا أنه لم يكن مقبولًا لحداثة سنِّه، وللحرب الأهلية التي وقعت بعد ذلك. وقد انقسم الجانبان المتنافسان في الحرب الأهلية إلى فريقين، يماني ونزاري. وتولَّى قيادة القبائل اليمانية خلف بن مبروك، وهو من قبيلة بني هناءة؛ ولذلك عُرفوا بالهنائيين. وكان على رأس النزاريين محمَّد بن ناصر وهو من بني غافر؛ ولذلك عُرفوا بالغافرية. وقد قُتل القائدان في معركة صحار عام ١٧٢٤م.

وفي عام ١٧٣٧م تعرَّضت البلاد لغزو فارسي وقد زاد من تعقيد موقف الحرب الأهلية المضطربة؛ ولكن نهاية هذا الصراع المدمِّر بدأت تلوح في الأفق. فقد هزم الفرس في صحار على يد أحمد بن سعيد بن محمَّد البوسعيدي الذي انتُخب بعد ذلك بوقت قصير إمامًا، وذلك في عام ١٧٤٤م. وأصبحت أسرة البوسعيد ـ التي تُعرف الآن بآل سعيد. تملك توجيه دفة الأمور في عُمان طوال الـ٢٣٢ عامًا الماضية، وينتمي إليها جلالة السلطان قابوس بن سعيد آل سعيد.

ورغم أن كثيرًا من إنجازات أسرة اليعاربة قد دمرت أثناء الحرب الأهلية، إلا أن الإمام أحمد استمر على سياسة تلك الأسرة التي دامت ١٢٠ عامًا. فقد شجع التجارة وازدهرت البلاد من جديد. واستمر حكمه ٣٩ عامًا ومات عام ١٧٨٣م.

وخلفه ابنه الثاني سعيد الذي وصل إلى الحكم بالانتخاب. ولم يكن ابنه الأكبر هلال أهلًا للحكم؛ لأنه كان ضريرًا، أما ابناه الصغيران سيف وسلطان فقد قضيا على أي مطلب لهما بتمردهما ضدَّ أبيهما. ولم يلق سعيد تحديًّا كإمام؛ ولكن بالنسبة لوضعه كحاكم دنيوي، فإن ابنه حمد قد انتزع منه السيطرة السياسيَّة، ونقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط، حيث تولَّى الحكم، وهو لا يَحمل لقب «السيد». وظلَّ والده إمامًا في الرستاق، لا يتمتع بأية سلطة حتى وفاته في وقت فيما بين ١٨١١م و١٨٢١م.

وكان نقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط وتولِّي حمد السلطة بلقب السيِّد بداية لاستخدام تعبير «مسقط وعُمان، بدلًا من عُمان» كدولة واحدة، واستمر هذا الوضع حتى يوليو ١٩٧٠م عندما تولَّى جلالة السلطان قابوس بن سعيد السلطة، فأصدر مرسومًا بتغيير اسم البلاد من «سلطنة مسقط وعُمان»، إلى «سلطنة عُمان».

وحكم السيِّد حمد بن سعيد في مسقط، من ١٧٨٠م إلى ١٧٩٢م وتوفي مصابًا بالجدري في مسقط. وقد حل محله عمّه السيِّد سلطان بن أحمد. خامس أبناء الإمام أحمد ـ وأحد الأبناء الذين تمرَّدوا على أبيهم عام ١٧٨١م.

وأبرم السيِّد سلطان بن أحمد اتفاقًا عائليًّا مع إخوته في بركاء عام ١٧٩٣م. وأدَّى هذا الاتفاق إلى مزيد من انقسام عُمان، حيث استمر سعيد في الرستاق كإمام، وحكم قيس (الابن الثالث للإمام أحمد) في صحار، وبقي سلطان في مسقط. وبهذا الاتفاق قسمت سلطة الحكم، وتعطَّلت الإمامة عن مزاولة السلطة. وقد شغل سلطان ـ أنشط أعضاء العائلة المالكة ـ بتطوير القوة البحرية والسفن التجارية. وتسبب هذا في استياء شعب الداخل. وضمَّ السيِّد سلطان إليه إقليم جوادر على ساحل مكران في بلوخستان، وظلَّ هذا الإقليم جزءًا من عُمان حتى عام ١٩٥٨م حين تنازل عنه السلطان سعيد بن تيمور.

وخلال الفترة من ١٨٠٠م إلى ١٨٠٣م تعرَّضت البلاد لغزو الوهابيين القادمين مما يُعرف الآن بالمملكة العربية السعودية.

وقد نزلوا على ساحل الباطنة وحاصروا السيِّد قيس بن أحمد في صحار. وتعاقبت النكسات على العُمانيين، وبدأ الموقف شديد الخطورة حتى تم بالمصادفة اغتيال القائد الوهابي مما دفع أتباعه إلى الانسحاب.

وفي عام ١٧٩٨م، أبرمت معاهدة مع شركة الهند الشرقية، وهي الشركة الإنجليزية التي استهدفت إبعاد الفرنسيين عن الهند. وأدرك السيد سلطان ـ بحكم كونه تاجرًا، له خبرته ومكانته ـ قوة الإنجليز وزيادة سيطرتهم على تجارة الهند، وأنَّه لا يملك القوة الكافية لمواجهتهم، فوقَّع معاهدة معهم. وتوفي عام ١٨٠٤م.

وفور وفاته بدأت المكائد. وقد ظلَّ عم سلطان، بدر بن سيف، حاكمًا اسميًا حتى وفاته عام ١٨٠٦م. ومع ذلك استمر القتال والانقسامات الداخلية حتى اغتيل بدر بيد سعيد بن سلطان عام ١٨٠٦م. وفي تلك الفترة أغرى الضعف الداخلي الوهابيين على القيام بغزو ثانٍ، انتهى بالنجاح، وأسفر عن سيطرتهم على مساحة كبيرة من داخل عُمان.

وكان عمر السيِّد سعيد بن سلطان، الذي عُرف باسم سعيد الكبير، سبعة عشر عامًا، وعندما تولَّى الحكم، كان شابًا مرموقًا، وقد خاض حروبًا، لإثبات كفايته وأهليته للحكم بإقصاء الوهابيين؛ ولكن لم يتحقق له النجاح عليهم نهائيًا إلا عام ١٨٢٠م، بمساعدة البريطانيين والفرس.

وخلال تلك الفترة توفي الإمام سعيد بن أحمد، وبعد وفاته لم تبذل أية محاولة لانتخاب إمام آخر.

وبذلك احتفظ السيِّد سعيد، كما كان، بالتقاليد التجارية لعائلته، وعمل بنشاط لتوسيع تجارة عُمان ونفوذها.

وفي عام ١٨٢٩م احتل ظَفَار ـ المنطقة الجنوبية من عُمان ـ.

وفي عام ١٨٣٢م وجَّه نشاطه لممتلكاته في شرقي أفريقيا، وأمضى معظم الفترة التالية من حياته في زنجبار والساحل الشرقي لأفريقيا.

وكان من نتيجة ذلك حدوث ازدهار في عُمان، بيد أن اهتمامه بممتلكاته الأفريقيا، وغيابه الطويل الدائم عن عُمان بعد عام ١٨٣٢م قد أغرى آخرين على السعي من أجل السلطة في عُمان.

ومما ساعد على ذلك علاقات السيِّد سعيد بالبريطانيين، فقد كان مقتنعًا بأنه لن يستطيع مواجهتهم، وأنه إذا تعامل معهم كأصدقاء فإنه سوف يكون في وضع أكثر أمنًا، وقد طلب منه البريطانيون منع تجارة الرقيق التي يقوم بها رعاياه في ممتلكاته الأفريقيا. وفي الأجزاء العربية من ممتلكاته.

ولقد بدا له ذلك الطلب من البريطانيين طلبًا غريبًا، خاصَّة وأَنه يتعارض مع نظام المجتمع العُماني والأُسس الاقتصادية التي يقوم عليها.

فلم تكن للرق في الإسلام تلك السِّمات اللاإنسانية التي اقترنت بها في المجتمعات الأوروبية. فالرقيق في عُمان يعدون من أفراد الأسرة وخدمها، ويؤدُّون الأعمال المنزلية، كما أن المجتمع يعتمد عليهم.

وحيث أن السيِّد سعيد لم يكن في وضع يسمح له بمناقشة البريطانيين في هذه الأمور فقد وافق على طلبهم، وتم في عام ١٨٢٢م توقيع أول معاهدة مع البريطانيين لتحريم الرق في عُمان. وكانت تلك المعاهدة مقدِّمة لمعاهدات أخرى وُقِّعت عام ١٨٣٩م وعام ١٨٤٥م غير أن هذه المعاهدات تركت آثارًا سلبيةً على الازدهار التجاري في عُمان، وسبَّبت شعورًا بالمرارة، ومن ناحية أخرى أُصيبت الحركة التجارية في عُمان بضربات شديدة؛ لأن السفن الأوروبية الضخمة والسريعة وضعت السفن الشراعية العربية في وضع

غير قادر على المنافسة، ثم زاد الطِّين بلَّة افتتاح قناة السويس الذي قضى على التجارة العُمانية وأَدَّى ذلك كله إلى تقليص إيرادات عُمان بشكل حاد. أمضى السيِّد سعيد السنوات الأخيرة من حياته في زنجبار. وإن كان قد قام بزيارات عديدة لعُمان كانت أكثرها لتسوية خلافات نشبت في غيابه. وضعف نفوذه على شعبه في عُمان؛ بسبب تلك الخلافات والمشاكل التي تفاقمت في السنوات الأخيرة بسبب التهديد الوهَّابي لعُمان.

وكانت آخِرَ زيارة للسيِّد سعيد لعُمان عام ١٨٥٤م، حيث تلقَّى رسالة بأن الفرس قد قاموا بهجمات متكرِّرة على بندر عباس، التي كانت إقليمًا فارسيًّا صغيرًا، وضمَّه السيِّد سعيد لعُمان، ويحتل بندر عباس موقعًا إستراتيجيًّا عند مدخل الخليج، وكان السيِّد سعيد يرفض إعادة الإقليم إلى الفرس رغم أنه كان ينفق عليه أكثر مما كان يدرّه. ولذلك فإنه بعد أن أتم كافة استعداداته وعيَّن ابنه خالدًا مُمثِّلًا عنه في زنجبار، غادر زنجبار، يصحبه نجله برغش في ١٨ أبريل ١٨٥٤م في السفينة «فيكتوريا» وفي عُمان كان ممثِّله في غيابه ابنه ثويني.

ولم يعش خالد طويلًا. وتوفي بعد إصابته بمرض استعصى على الشفاء في نوفمبر ١٨٥٤م وعمره ٣٥ عامًا، بعد ثمانية شهور من رحيل أبيه إلى عُمان، وأصبح ابنه ماجد ممثِّلًا لوالده.

ومكث السيِّد سعيد في عُمان حتى عام ١٨٥٦م. وغادر مسقط في ١٥ سبتمبر ١٨٥٦م، وبعد يومين من الإبحار من مسقط في ١٨ سبتمبر أُصيب بألم شديد في ساقه نتيجة جرح قديم كما أُصيب بدونسنطاريا حادَّة وتوفي بعد ذلك بستة أيام على ظهر سفينته.

ومع ذلك لم يصل نبأ وفاته إلى عُمان أو زنجبار. وكان أهل زنجبار ينتظرون عودته بشوق، بينما في عُمان كانوا ينتظرون معرفة وصوله إلى

زنجبار، وعند وفاته في ١٩ أكتوبر ١٨٥٦م، تولى ابنه برغش أمر السفينة التي كانت تقل جثمانه، ولما اقتربت من زنجبار أمر السيِّد برغش بأن ترسو السفينة في غير المكان المعتاد، وأخذ جثمان أبيه إلى الشاطىء ودفنه سرًّا.

في نفس الوقت كان السيِّد ماجد يراقب البحر في انتظار وصول سفينة أبيه بعد أن علم باقترابها. ولكن سوء الأحوال الجوية وهياج البحر جعلت قاربه الصغير لا يستطيع تحمُّل الأمواج، ففقد السيطرة على دفة قاربه ولم يستطع الوصول إلى السفينة.

ووضع السيِّد برغش خطةً للاستيلاء على الحكم. فما أن انتهى من مراسم دفن والده حتى قام بمحاصرة القصر الذي كان يقيم فيه أخوه السيِّد ماجد، غير أن الخطة فشلت لغياب ماجد في ذلك الوقت، فقد كان يستقل السفينة في البحر، وبالتالي تم تنصيب السيِّد ماجد حاكمًا على زنجبار في نفس اليوم، وكان يبلغ من العمر إذ ذاك ٢٢ عامًا.

أما السيِّد ثويني فقد تولى حكم عُمان بعد وفاة والده باعتباره أكبر أنجال السيِّد سعيد. ولكن سرعان ما نشب نزاع بين السيِّد ثويني والسيد ماجد عندما طالب السيِّد ثويني بفرض سلطته على زنجبار أيضًا.

وكنتيجة للمحاولات التي قام بها السيِّد ثويني لفرض سلطته على زنجبار بالقوة، تأزم الموقف، فأحيل النزاع إلى اللورد البريطاني كاننج! الذي كان يشغل منصب الحاكم العام في الهند. فأصدر كاننج حكمًا بوجوب تقسيم المملكة بين الأخوين. غير أن هذا القرار تمخض عنه خسائر اقتصادية بالغة لعُمان، ونظرًا لأن اللورد كاتنج قد أدرك الغبن الذي تعرَّضت له عُمان فقد أصدر في سنة ١٨٦٠م قرارًا بأن يلتزم السيِّد ماجد بدفع تعويضات سنوية لحكومة السيِّد ثويني في حدود ٤٠ ألف ريال نمساوي. غير أن حكومة

زنجبار لم تلتزم بهـذا القرار، مما اضطر حكومة الهنـد إلى أن تتكفل بدفع المبلغ سـنويًّا ابتداءً من عـام ١٨٧١م حتى عام ١٩٤٧م عندمـا أصبحت هذه الأمور من اختصاص وزارة الخارجية في لندن، التي استمرت في دفعه حتى عام ١٩٦٧م عندما بدأت عُمان تصدر البترول. وكانت قيمة هذا الدعم تقدر بمعدلات مختلفة من وقت لآخر.

ففي عـام ١٨٧٣م قدرت بمبلـغ ٨٦,٤٠٠ روبية. وفي عـام ١٩٦٧م وصل المبلغ إلى ٦,٥٠٠ إسترليني.

وقد أدَّت وفاة السيِّد سعيد ثم تقسيم مملكته بين ابنيه، إلى تدهور سريع في أوضاع البـلاد. ووجد خلفاء ماجد أنفسـهم مقيدي الحركـة أمام زيادة الاهتمام الأوروبي بشرقي أفريقيا والاعتداء على أراضيها، خاصَّة من ألمانيا إلى أن تم في عـام ١٨٩٠م وضع زنجبار مع أراض أخـرى في أفريقيا تحت سيطرة بريطانيا باسم الحماية.

وفي عُمان سرعان ما تفتت السلطة القوية للسيِّد سعيد تحت حكم السيِّد ثويني وخلفائه المباشـرين. وكان الاسـتثناء هو فترة الحكم القصيرة للإمام عزان بن قيس من ١٨٦٨م إلى ينايـر ١٨٧١م. وأدرك الإمام عزان، أن عُمان لا يمكن أن تكون دولة قوية مستقلة ما لم يتم استعادة سلطة الحكومة المركزية علـى قبائل الداخـل، وأن يعاد دفع أمـوال الزكاة كمصـدر تقليدي للدخل الحكومي، فتحلَّ محل العوائد الجمركية الضئيلة.

غير أن السـيِّد عزان لم يحقِّـق نجاحًا في توحيد البـلاد؛ لأن الحكومة البريطانية لم تدرس هذا الموضوع ولم تـدرس دوافعه، ولم تعترف به أيضًا حكومة الهنـد، وقد أوقف الدعـم المالي الذي كان قد تقـرَّر بموجب قرار كاننج.

وابتداء من عام ١٨٧١م فإن عُمان غرقت أكثر وأكثر في بحر من الكساد الاقتصادي؛ بسبب اضطرابات كثيرة نشبت في الداخل، واستمر السلاطين في مسقط يواجهون تمرد القبائل وتهديدهم، وظلَّت هذه الاضطرابات والخلافات بين الطرفين حتى عام ١٩٢٠م عندما وقع اتفاق في السيب بين عيسى بن صالح ممثِّلًا للقبائل وبين حكومة مسقط، وعاد السلام والاستقرار إلى البلاد. وكان السلطان وقتئذ هو السيِّد تيمور بن فيصل، جد السلطان قابوس.

ومن بين مواد هذا الاتفاق المشار إليه، أن يمتنع رجال القبائل المتمردة عن مهاجمة المدن الساحلية التي يتمتعون فيها بحرِّيَّة التنقّل والأمن، وأن يسمح لسكان المدن الساحلية بالذهاب إلى المناطق الداخلية في عُمان لممارسة أعمالهم التجارية، وقد تعهدت حكومة السلطان بعدم التدخُّل في شؤون القبائل.

ويقضي الاتفاق أيضًا بأن تحلَّ جميع الخلافات والدعاوى ضد الشعب العُماني من جانب التجار وغيرهم طبقًا للشريعة الإسلامية.

وفي عام ١٩٣٢م تنحَّى السيِّد تيمور، وخلفه ابنه السيِّد سعيد بن تيمور، وقد كان من الإنجازات الهامة التي قام بها السيِّد سعيد تصفيته الديون التي ورثها عن أبيه، ورفضه أن يجلب على البلاد قروضًا أخرى، وهو قرار له أهميته البالغة، فقد كان أبوه وجده وجد أبيه قد تركوا الأمور تنزلق إلى مهوى سحيق، ولم يتلق السلطان سعيد نفسه أي مساعدات من المستشارين الأجانب.

وقد عاش السيِّد سعيد بن تيمور في عزلة عن شعبه، في صلالة، من عام ١٩٥٨م إلى ٢٣ يوليو ١٩٧٠م حين خلفه ابنه السلطان قابوس. وتوفي السيِّد سعيد بعد ذلك بعام في دوشستر هاوس بلندن.

وإن السلاطين الذين تتابعوا في حكم عُمان بعد وفاة السيِّد سعيد الكبير هم كما يلي:

- السيد ثويني بن سعيد من عام ١٨٥٦م إلى عام ١٨٦٦م.
- السيد سالم بن ثويني من عام ١٨٦٦م إلى عام ١٨٦٨م.
- السيد (الإمام) عزان بن قيس من عام ١٨٦٨م إلى عام ١٨٧١م.
- السيد تركي بن سعيد من عام ١٨٧١م إلى عام ١٨٨٨م.
- السيد فيصل بن تركي من عام ١٨٨٨م إلى عام ١٩١٣م.
- السيد تيمور بن فيصل من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩٣٢م.
- السيد سعيد بن تيمور من عام ١٩٣٢م إلى عام ١٩٧٠م.

ومنذ عام ١٩٧٠م يتولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد الحكم وإدارة شؤون البلاد. وفي زنجبار خلف السيِّد ماجد أباه السيِّد سعيد بعد وفاته، واستطاع السيِّد ماجد الوصول إلى حكم الساحل الشرقي لأفريقيا بطريقة سلمية؛ بسبب شعبيته لدى معظم السكان العرب في زنجبار.

ولم يكن أخوه السيِّد ثويني الذي كان يحكم في مسقط راضيًا عن هذا الوضع، وقد سارع إلى المطالبة بحكم كل ممتلكات أبيه، وأخذ يستعد للإبحار إلى زنجبار مستهدفًا فرض نفسه بالقوة على ما يعتبره حقًّا من حقوقه؛ ولكن الحكومة البريطانية حالت بينه وبين تنفيذ خططه، وكونت لجنة للنظر في خلافات الأخوين المتنازعين، وبينما كانت اللجنة تباشر مهمتها حاول ثويني إثارة المتاعب ضد أخيه السيِّد ماجد بين بعض سكان زنجبار، وساعده في ذلك أخوه الأصغر السيِّد برغش.

ففي عام ١٨٥٩م دبر السيِّد برغش مؤامرة للإطاحة بالسيد ماجد، وبدا في

لحظة ما أن المؤامرة قد نجحت؛ لكن تدخـل القنصل البريطاني في زنجبار أدَّى إلى إحباطها في النهاية - وأبعد السـيِّد برغـش إلى بومباي حيث عاش هناك حتى عام ١٨٦١م.

وفي نفس العام أنهت اللجنة أعمالها، وقرَّرت تقسـيم الحكم بين السيِّد ثويني وبين السيِّد ماجد. وتم بذلك فصل شرقي أفريقيا عن عُمان ابتداءً من عام ١٨٦١م.

وتوفي السيِّد ماجد عام ١٨٧٠م وعمره ٣٧ عامًا وخلفه أخوه السيِّد برغش.

وكان السيِّد برغش شخصية مرموقة، ويشـبه والده السيِّد سعيد في كثير من صفاته، وقد كشفت طريقة تآمره على أخيه السيِّد ماجد عن مدى طموحه وجرأته. كما كان أكثر حيويةً ونشـاطًا من أخيه السيِّد ماجد. وقد اتهم بولعه بالحياة المترفـة. وفي عهـده جرى اسـتخدام لقب سـلطان لأول مرة في الاسـتعمال خاصَّة بين الأوروبيين المقيمين في زنجبار، وأقام لنفسـه قصرًا جميلًا، مـا زال قائمًا - ويُعرف باسـم بيت العجائب - كمـا مد خط أنابيب للمياه من نبع شـيم شـيم إلى المدينة لتوفير المياه النقية للسكان، وعندما اجتاح إعصار رهيب زنجبار ودمَّر كل مزارع القرنفل، ظهرت قوة شـخصية السـيِّد برغش بالطريقة التي عمل بها على الفور، فعادت زراعة القرنفل إلى حالتها المزدهرة.

وفي عهده أصبح شـرقي أفريقيا أكثر اتصالًا بالعالَم الخارجي عن طريق السُّفن التجارية وخطوط المواصلات السـلكية، وفي عام ١٨٦٩م فتحت قناة السويس، وبعدها بفترة قصيرة في عام ١٨٧٢م بدأت شركة الملاحة البريطانية الهندية خدمة بريدية شهرية بين عُمان وزنجبار، وفي عام ١٨٧٩م أتمَّت شركة التلغراف الشـرقية مد خط تلغرافي بحري تحت الماء من عدن إلى زنجبار، مما جعل الساحل على اتصال وثيق بالعالَم الخارجي.

وفي عام ١٨٧٥م قام السيِّد برغش بزيارة رسمية لإنجلترا، حيث استقبلته الملكة فيكتوريا، وأمير وأميرة ويلز. كما زار باريس وبرلين وهو في طريق عودته إلى شرقي أفريقيا.

ويعتبر عهد السيِّد برغش فترة لا تُنسى؛ لأنها شهدت بداية الاهتمام الأوروبي النشط بأفريقيا، والقضاء التدريجي على تجارة الرقيق في شرقي أفريقيا.

وفي عام ١٨٧٣م أرسلت الحكومة البريطانية السير بارتل فرير إلى زنجبار لإقناع السيِّد برغش بالموافقة على معاهدة أكثر فعالية في الحدِّ من تجارة الرقيق من تلك التي وقّعها والده. ووجد السيِّد برغش نفسه في موقف بالغ الحرج، وشكا للسيِّد بارتل فيربر من أنه يجد بريطانيا ـ من جانب ـ تصر على القضاء على تجارة الرقيق ـ ويجد من جانب آخر ـ رعاياه العرب يرفضون مطالب الحكومة البريطانية؛ لأنها تتعارض مع مصالحهم.

وكان الإعصار الذي دمَّر مزارع القرنفل وجلب الخراب على كثير من أصحاب المزارع العرب قد جعل توقيع معاهدة جديدة أمرًا عسيرًا على السيِّد برغش، وأبدى السيِّد برغش اعتراضه على هذه المعاهدة، بأَنَّه إذا استجاب للمطالب البريطانية فإن حياته ستتعرَّض للخطر؛ بسبب السخط الشديد الذي ستحدثه مثل هذه الخطوة بين رعاياه العرب.

وكلّف القنصل البريطاني العام في زنجبار الدكتور كيرك بمفاوضة السيِّد برغش، وأَمام رفض السيِّد برغش توقيع المعاهدة ألمح الدكتور كيرك إلى أن بريطانيا قد تجد نفسها مضطرّة إلى استخدام القوّة في حالة رفض توقيع المعاهدة، وفي النهاية وقِّعت المعاهدة في عام ١٨٧٢م، وتمَّ في نفس اليوم إغلاق سوق العبيد في زنجبار.

وتوفي السـيِّد برغش عام ١٨٨٨م، وخَلَفه أخوه السـيِّد خليفة بن سعيد، ولم يستمر عهد السيِّد خليفة سوى عامين.

وفي عام ١٨٩٠ تولَّى حكم زنجبار علي بن سـعيد آخِر أبناء السيِّد سعيد الكبير. وكان أبرز حَدَث في عهده هو إعلان جزيرتي زنجبار وبيمبا محميتين بريطانيتين، وذلك في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٠م، ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٠ ديسـمبر ١٩٦٣م، وضعت الإدارات والحكومة في زنجبار في أيدي مسؤولين بريطانيين، تحت حكم السلطان الذي أصبحت سلطته محدودة للغاية، فكان الحاكم الإسمي.

وبهذا انتهى الحكم الطموح للسـيِّد سـعيد الكبير في بنـاء إمبراطورية واسعة في شرقي أفريقيا له ولخلفائه من بعده.

ورغم أن اللوم يمكن أن يقع على عدم قدرة خلفاء السـيِّد سـعيد على إقامة حكم راسـخ وفعَّال في هذه المناطق، غير أن المنافسة الأوروبية على الاستحواذ على مناطق في أفريقيا تتحمَّل أيضًا جزءًا من المسؤولية. فقد كان لا بد من قوة أوروبية تتقدَّم لتأخذ في يدها السلطة في زنجبار.

وعهد إلى مسـؤول بريطاني هو السـير لويد ماثيوز بمهمَّة إعادة تنظيم الحكومة تحت الحماية البريطانية. ومنح لقب الوزير الأول للسـلطان، وكان سير لويز ماثيوز قد جاء لأول مرة إلى شـرقي أفريقيا كليفتنانت في البحرية البريطانية، ولعب دورًا فعَّالًا في القضاء على تجارة الرقيق. وبعد ذلك بعامين أوفدتـه البحرية البريطانية لينضم إلى حامية السـيِّد برغـش في تدريب قوة عسـكرية صغيرة من ٥٠٠ رجل. وقد حقَّق في منصبه الجديـد نجاحًا كبيرًا، وأُعجب السيِّد برغش بما حقَّقه.

وبعد تقاعد ماثيوز مـن عمله في البحرية البريطانيـة، عُيِّن قائدًا لجيش

السلطان عام ١٨٨١م برتبة بريجادير جنرال؛ ولذلك فإنه كان على دراية واسعة بالعرب وتقاليدهم وأساليب حياتهم، فضلًا عن ارتباطه بشؤون القصر، إثر تعيينه وزيرًا أول للسيِّد علي عام ١٨٩١م.

وتوفي السيِّد علي بن سعيد عام ١٨٩٣م، وخلفه السيِّد حمد بن ثويني أحد أحفاد السيِّد سعيد. وشهدت زنجبار اضطرابات خلال توليه الحكم، حيث قام السيِّد خالد أكبر الأبناء الباقين للسيِّد برغش، بمحاولة يائسة للاستيلاء على الحكم بالقوة. ولم ينجح خالد في مساعيه خلال الفترة القصيرة من حكم السيِّد حمد بن ثويني؛ لكنه قام بعد وفاته عام ١٨٩٦م بأكثر من محاولة لاغتصاب الحكم بل أَنَّه حتى قبل أن يوارى جسد السيِّد حمد التراب. اقتحم السيِّد خالد مع فئات من العرب المسلمين، القصر وأَعلن نفسه سلطانًا.

وقد حدث ذلك في ٢٥ أغسطس عام ١٨٩٦م، وفي اليوم التالي قام الممثِّل البريطاني في زنجبار بجهود يائسة لإقناع السيِّد خالد بالتخلِّي عن السلطة، لصالح السيِّد حمود بن محمَّد؛ لكنه رفض وبقي في القصر، ولذلك صدرت الأوامر للأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال راوسون، بإقامة سياج من الحراسة على قصر القنصل البريطاني العام، والجمارك، والحي الأوروبي.

وفي صباح ٢٧ أغسطس أرسل الأدميرال إنذارًا للسيِّد خالد بأن يستسلم خلال ساعتين وإلا فإنه سيضطر إلى قصف القصر. ولم يرد السيِّد خالد؛ ولذلك بدأَت ثلاث سفن حربية في قصف القصر في الساعة التاسعة صباحًا ـ وفي خلال نصف ساعة كان القصر قد تحوَّل إلى شعلة من النيران، وأصبح الجزء الأوسط منه أنقاضًا، وسقط خمسمائة من أنصار السيِّد خالد قتلى أو جرحى في ميدان القصر.

وبعد أن رأى خالد كل هذا هرب من القصر المحطَّم، واتخذ طريقه إلى القنصلية الألمانية، ومن هناك توجَّه ســرًّا إلى دار السلام، حيث سمحت له الإدارة الألمانية بالإقامة هناك.

وقد بقي هناك إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى فانضم إلى الألمان ضد البريطانيين، ووقع في أَسر القوات البريطانية عام ١٩١٧م فنفته إلى جزيرة سانت هيلانة، ثم نقلته في عام ١٩٢١م إلى سيشل.

وفي مقابل تعهداته بالتخلي عن المطالبة بالســلطة سمحت له السلطات البريطانية عام ١٩٢٥م بالعودة إلى شــرقي أفريقيا، والإقامة في ممباسة، حيث أمضى هناك بقية حياته، ومات عام ١٩٢٧م.

وكان الســيِّد حمود بن محمَّد قد تولى الحكم فــي زنجبار عام ١٨٩٦م، وتمت مراسم تنصيبه في جو ســلمي، وكان يقال عنه: إنه موالٍ للبريطانيين في تصرفاته، وقد بذل جهودًا كبيرةً لتشــجيع رعاياه على مجاراة البريطانيين في ســلوكهم وفي طرق حياتهم، وأوفد هو نفســه ابنه السيِّد علي بن حمود للدراسة والتعلُّم في المدرسة الإنجليزية في هارو.

وقد توفي الســير لويد ماثيوز في عهده، وكانت وفاته في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠١م، واعتبرت وفاته صدمة لــكل أهالي زنجبار وبيمبا، نظرًا لما شــهدته الجزيرتان في عهده من رخــاء، ولارتباطه الطويل بهــذه البلاد حتى أصبح وكأنه جزء من صميم حياتها.

وقد أمضى السير لويد ماثيوز في شــرقي أفريقيا مدة ستة وعشرين عامًا لم يزر فيها وطنه سوى مرتين اثنتين.

وتوفي الســيِّد حمود في ١٨ يوليو عام ١٩٠٢م، وخلفه ابنه السيِّد علي بن حمود، وكان لا يزال صغيرًا، لا يســتطيع تولِّي مســؤوليات الحكم قبل عام

١٩٠٥م رغم إعلانه سلطانًا، فقام مستر روجرز الوزير الأول بمهام الوصي على السلطان الصغير خلال الفترة من ١٩٠٢م إلى ١٩٠٥م.

وقد غرست إقامة السيِّد علي في إنجلترا للدراسة في نفسه حب الأسفار، فاعتاد بعد أن أصبح سلطانًا على أن يمضي فترة من كل عام في ربوع أوروبا، وكان أسلوب حياته في زنجبار متمشيًا مع الأساليب الأوروبية وقد غادر زنجبار عام ١٩١١م لحضور حفل تتويج الملك جورج الخامس، وأثناء وجوده في أوروبا قرَّر التنازل عن العرش. وأمضى بقية حياته في أوروبا، وتوفي في باريس عام ١٩١٨م.

وقد خلفه في عام ١٩١١م السيِّد خليفة بن حارب.

وفي عام ١٩١٣م ألغيت مكاتب الوزير الأول والقنصل البريطاني العام واستُبدِلت بها مكاتب جديدة؟ هي مكتبا المقيم البريطاني، والسكرتير الأول. وتم في نفس الوقت تشكيل مجلس الحماية من السلطان نفسه رئيسًا، وعضوية المقيم البريطاني، كنائب للرئيس، وقد شمل أيضًا ثلاثة أعضاء مسؤولين وأربعة أعضاء غير رسميين لتمثيل مختلف الطوائف.

وفي عام ١٩٢٦م حلّت مجالس تشريعية وتنفيذية محلَّ مجلس الحماية. وكان الهدف من المجلس التشريعي ـ الذي كان يضمُّ عددًا من الأعضاء غير الرسميين رغم أن غالبيته من الرسميين ـ هو إعطاء أفراد الشعب نصيبًا أكبر من المشاركة في حكم بلادهم بصورة أكبر مما كان معمولًا به، وكان المجلس التشريعي مخولًا بسلطة سنّ القوانين لتوفير عدالة الإدارة، ورفع الدخول، وضمان الأمن والنظام، وحُسن إدارة الحماية.

وشهدت الجزيرتان خلال عهد السيِّد خليفة أعمالًا كثيرةً لتطوير مصادرهما، فقد أنشىء ميناء جديد وشقَّت طرق عديدة حديثة في زنجبار

وبيبمبا. وأفادت هذه الطُّرق منتجي القرنفل، وسهلت انتشار خدمات التعليم والصحَّـة، ووصولها إلـى القرى النائية فـي الجزيرتين. وافتتحت مدرسـة لتدريب المدرِّسين، ثم بدأ تدريجيًا في إنشاء مدارس إقليمية في كل جزء من المحمية. وفي عام ١٩٢٧م افتتحت مدرسة لتعليم البنات في مدينة زنجبار.

ومن الجدير بالذِّكر أن نشير إلى أنَّه كان من المفروض أن تَخْلف السيدة معتوقة بنت حمود أخاها السيِّد علي بن حمود بعد تنازله الأخير عن العرش عام ١٩١١م؛ ولكن التقاليد السـائدة كانـت تمنع تولي امـرأة منصب رئيس الدولة، ومن ثم فقد تولى زوجها السيِّد خليفة السلطة.

وعندما توفي السيِّد خليفة عام ١٩٦١م، نودي بابنه السيِّد عبدالله بن خليفة سـلطانًا. ولم يبق السـيِّد عبدالله طويلًا في الحكم. فقد مات عام ١٩٦٢م بعد إصابته بآلام حادة في ساقيه انتهت باستئصالهما.

وخلفه ابنه الأكبر السيِّد جمشـيد بن عبدالله، وهو آخِر سلاطين زنجبار، عند إعلان استقلالها في ١٠ ديسمبر ١٩٦٣م. وبعد ذلك بشهر واحد، أي في ١١ يناير ١٩٦٤م وقع انقـلاب مدبَّر من الخارج وأُطيح بحكومته. فتوجَّه السـيِّد جمشيد إلى إنجلترا للإقامة الدائمة فيها.

السلاطين البوسـعيديون الذين تعاقبوا على حكم زنجبار بعد وفاة السيِّد سعيد الكبير، هم كما يلي:

ـ السيد ماجد بن سعيد	١٨٥٦ ـ ١٨٧٠م
ـ السيد برغش بن سعيد	١٨٧٠ ـ ١٨٨٨م
ـ السيد خليفة بن سعيد	١٨٨٨ ـ ١٨٩٠م
ـ السيد علي بن سعيد	١٨٩٠ ـ ١٨٩٣م

ـ السيد حمد بن ثويني	١٨٩٣ ـ ١٨٩٦م
ـ السيد حمود بن محمَّد	١٨٩٦ ـ ١٩٠٢م
ـ السيد علي بن حمود	١٩٠٢ ـ ١٩١١م
ـ السيد خليفة بن حارب	١٩١١ ـ ١٩٦١م
ـ السيد عبد الله بن خليفة	١٩٦١ ـ ١٩٦٢م
ـ السيد جمشيد بن عبد الله	١٩٦٢ ـ ١٩٦٣م

* * *



العرب في شرقي أفريقيا

الداو، اسم لنوع من السفن الشراعية العربية المعروفة لسكّان شرقي أفريقيا، وكان هذا النوع من السفن يقوم برحلات سنوية إلى شواطئ شرقي أفريقيا، تحمل مختلف أنواع السلع العربية مثل البلح، وسمك القرش المجفَّف، والقهوة، والسجاد.

وكانت هذه القوارب تخرج عادة من الجزيرة العربية في شهر يناير، ثم تبحر عائدةً إلى بلادها فيما بين نهاية مارس وأوائل يونيو من كل عام.

وكان مما يسهل هذه الرحلات المنتظمة ذهابًا وإيابًا الرياح الموسمية التي تهب من الشمال إلى الشرق في شهر ديسمبر، وتصل بالعرب إلى الساحل الشرقي من أفريقيا، وتهب من الجنوب إلى الغرب في مارس فتعود بهم إلى الجزيرة العربية في رحلة تستغرق ألفي ميل في مياه المحيط الهندي. وقد استفاد بحارة وتجّار الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها من الرياح الموسمية طوال ما لا يقل من ٣٠٠٠ عام.

ولعب هؤلاء الملّاحون دورًا هامًا في تاريخ الساحل الشرقي لأفريقيا، وكانت التوابل والعاج والعبيد تجذب أنظار هؤلاء الزوّار القادمين من الجزيرة العربية، الذين تغريهم تلك السلع وتشجعهم على قطع تلك المسافة الطويلة للحصول عليها. لما كانت تحقّقه تجارتها من مكاسب كبيرة.

وقد وجد العرب بالإضافة إلى ذلك سوقًا رائجة لسلعهم.

وكانت الصومال المنطقة الرئيسية للتوابل. وكان العاج من المنتجات الأفريقيا الهامَّة، وقد اهتم الإفريقيون الوطنيون بصيد الفيل، الذي لم تكن له استخدامات أخرى، من أجل أنيابه، وينقل العاج من داخل أفريقيا إلى الساحل، فيباع للتجَّار الزائرين.

وكان الطلب على العاج كبيرًا في كثير من دول الشرق، حيث يستخدم في عمل أثاث المنازل وفي تحف الزِّينة.

أما تجارة العبيد فكان نطاقها كبيرًا، وقد عانت أفريقيا بسبب هذا النوع من التجارة، بأكثر مما عانى أي مكان آخَر في العالَم.

ولم يكن العرب العُمانيون أول من زار الساحل الشرقي لأفريقيا، فقد كان السومريون الذين عاشوا بالعراق منذ ٧٠٠٠ عام أول شعب يقوم أبناؤه برحلات إلى البحار المفتوحة، وأول من اخترع السُّفن الشراعية. وقد ازدهرت الحضارة السومرية لفترة امتدت ألف عام إلى أن هزمهم شعب آخَر هم الآشوريون، الذين لم يدمِّروا حضارة السومريين؛ ولكنهم حافظوا عليها وطوَّروها.

وقام الآشوريون أيضًا برحلات بحرية، ومن الممكن أنهم وصلوا إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، حيث تركوا وراءهم مزاولة السحر التي لا تزال موجودة يمارسها بعض سكان الساحل، وتُعتبر مماثلة لتلك الممارسات التي جرت بين الآشوريين والسومريين.

وهناك صلة هامة أخرى بين الآشوريين وشرقي أفريقيا هي استدام علامة القرن، التي تسمى في السواحلية «سيوا»، في الكتابة والنحت للتدليل على القوة والزعامة. واستخدم الرؤساء القبليون في شرقي أفريقيا علامة مماثلة كرمز للقوة والسلطة. ويمكن مشاهدة هذه القرون الآن في بعض المتاحف

الأفريقيا. ففـي جزيرة لامـوه بكينيا يوجد أحـد قرون العـاج الجميلة في متحفها. وفي متحف زنجبار صورة لقرن كان يستخدم في لاموه وهو مصنوع مـن البرونز. ويوجد فـي نفس المتحـف قرنان من الخشـب بين مخلفات الحاكم السابق لزنجبار الذي كان يسمى «مويني مكون».

والهنود أيضًا من أَقدم من اسـتفادوا بالرياح الموسـمية في التجارة مع شـرقي أفريقيا. وبالإضافة إلى رحلاتهم التجارية فقد أقاموا مستوطنات على الساحل، وربما توغل بعضهم إلى الداخل إلى منطقة البحيرات الكبرى.

وقد أرسل المصريون بعثاتهم التجارية منذ ٥٠٠٠ عام إلى الصومال التي أسموها بونت، وكانوا يتاجرون على نطاق واسع في الذهب، والعاج، وجلد النمر، الذي استخدمه الملوك والنبلاء المصريون القدماء في تزيين قصورهم.

كذلك قام اليهود الفينيقيون برحلات مماثلة إلى الساحل الشرقي لأفريقيا وقد عاش الفينيقيون على السـاحل الشـرقي للبحر المتوسط، وكانوا جيرانًا لليهود. واسـتخدموا مينائي صور وصيدا، وقاموا برحلات تجارية إلى بلاد أفير وسـوفالا للحصول على الذهب والفضة والعاج والقـرود والطاووس، ويعتقد أن تلك الرحلات تمَّت منذ ألف عام قبل الميلاد.

وكان للعرب الذين يؤمُّون الساحل الشـرقي لأفريقيا دور هام ومستمر، وأكثر تأثيرًا من دور أي فريق آخَر في المنطقة. وقد ظلَّ تاريخ شرقي أفريقيا مرتبطًا بالعرب ارتباطًا وثيقًا طوال ثلاثة آلاف عام.

ولقد كان سـكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ملَّاحين يتمتعون بمهارة فائقة، وتجارًا بارزين مشـهود لهم بالخبرة، وكانت الموانئ الجنوبية للجزيرة العربية في الماضي مركـزًا لزدهار تجاري كبير، ونعمت دول أخرى صغيرة في المنطقة بالثراء والقوة.

وقد سـهل الموقع الجغرافي لشـبه الجزيرة الاتصال بالدول القريبة في أفريقيا وآسيا. فحدود الجزيرة العربية من ناحية الغرب، حيث باب المندب، تلامس أفريقيا، وهي من ناحية الشـرق قريبة جدًّا من فارس ومن السـاحل الغربي للهند، وفي الشـمال فـإن الجزيرة العربية متصلـة وقريبة من الدول المطلَّة على البحر الأبيض المتوسط.

كما كانت موانئ جنوب شبه الجزيرة مكانًا ملائمًا للرحلات بين الشرق والغرب؛ ولذلك كانت السـلع من موانئ منطقة الخليـج والهند تُنقل على طول السـاحل الجنوبي للجزيرة العربية، وتتوجه إلى البحر الأحمر، ثم إلى ميناء السويس.

وأكثـر من ذلك فقـد كان العرب أكثر الشـعوب اسـتفادة مـن الرياح الموسمية، واحتكروا ملاحة البحر الأحمر في أيديهم. وكانت السلع القادمة من شـرقي أفريقيا أولًا إلى جنوب الجزيرة العربية إمـا عن طريق البحر، أو بالقوافل تمر عبر الصحراء إلى الدولة المطلَّة على البحر المتوسـط. وبذلك أصبح جنوب الجزيرة العربية سوقًا ضخمة ومركزًا تجاريًّا هامًّا يتم فيه تناول منتجات العالَمين الشـرقي والغربي. وبالإضافة إلى ذلـك النوع من التجارة اكتشـف العرب من سـكان جنوب الجزيرة منذ ثلاثة آلاف عـام أنه يمكن الاسـتفادة من الرياح الموسـمية في إقامة تبادل تجاري مع الساحل الشرقي لأفريقيا، وأصبح من المعتاد إرسال أسطول تجاري ضخم من السفن كل عام على طول الساحل الشرقي لأفريقيا كله.

ويعتبر العُمانيون أول شـعب يقيم مسـتوطنات له على الساحل الشرقي لأفريقيا، فبعد انتفاضهـم على حكم الخليفة الأمـوي عبدالملك بن مروان هاجر جماعة منهم بقيادة سـليمان وسـعيد ابني الجلندى إلى شرقي أفريقيا بعد هزيمتهم من جيش الخليفة الذي أرسله إلى عُمان.

وليس معروفًا بصفة أكيدة مكان استيطانهم في المهجر الذي ذهبوا إليه في أفريقيا؛ ولكن المعروف أنهم أقاموا في جزيرة باتي شمالي كينيا، وقد لعبت هذه الجزيرة دورًا هامًا في التاريخ العربي في الأعوام اللاحقة.

والموجة الثانية من العرب المهاجرين إلى شرقي أفريقيا حدثت إثر نزاع قام بين طوائف الشيعة الذين انقسموا إلى مجموعتين متعاديتين، وكان يقود إحدى هاتين المجموعتين زيد بن علي بن أبي طالب، وقد هزم زيد وذبح على يد أنصار الخليفة، واضطر أنصاره للنجاة بأرواحهم، فذهبوا إلى شرقي أفريقيا، حيث استوطنوا بنادير في الصومال.

ومارس الزيديون السلطة على ساحل بنادير طوال ألفي عام. ومع بداية القرن التاسع هاجمتهم مجموعة أخرى من المهاجرين قدمت من الإحساء في المملكة العربية السعودية.

فقد أبحر سبعة إخوة من الإحساء في ثلاث سفن وتوجهوا إلى ساحل بنادير، حيث أَسَّسوا مدينَتَي مدغشقر وبراوا. ورفض الزيديون الاعتراف بسلطة القادمين الجُدد، وتراجعوا إلى الداخل، حيث تزاوجوا مع الوطنيين.

ونعود الآن إلى قصة حسن بن علي وإخوته الستة.

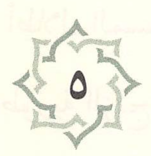
والمعروف أن حسن بن علي إما أنه أحد أبناء حاكم شيراز، أو أنه ذلك الحاكم نفسه. ولقد قرر لأسباب غير معروفة مغادرة شيراز. وغادر فارس يصحبه إخوته الستة وعدد من أنصاره عام ٩٧٥م يقلهم أسطول من سبع سفن، وتوقف ركاب ثلاث من هذه السفن واستوطنوا أماكن مختلفة على طول الساحل الشرقي لأفريقيا. وتوقف السفينة الرابعة في ممباسة، والخامسة في بيمبا، والسادسة ـ وهي التي تقل حسن نفسه ـ في كيلوا، أما الخامسة فقد رست في جوهانا في الكومور.

وفي كيلوا وجد حسن أن العرب يستوطنونها بالفعل فبدأ في إجراء مفاوضات مع «لورد أوكيلوا» وهو رئيس قبلي إفريقي. واشترى منه حسن الجزيرة واستطاع حسن وأتباعه أن يعيشوا في أمان من أي هجمات أفريقيا؛ لأن الجزيرة كان يفصلها عن الأرض مجرى مائي عميق.

ومن بين الذين هاجروا إلى الساحل الشرقي لأفريقيا الصينيون، والملاويون والواديبولي.

وقد نزل الصينيون على الساحل الشرقي لأفريقيا في العصور الوسطى بهدف التجارة. وعثر في عدة أماكن من الساحل على عملة وأوانٍ فخارية صينية تعود إلى عام ٧٠٠ ميلادية، وأدخل الملاويون زراعة نخلة الأربعة وقصب السكر، ونبات التنبول المتسلق. ويعتقد أن الواديبولي قد جاءوا من شيراز وأدخلوا زراعة جوز الهند إلى المنطقة.

❁ ❁ ❁



مجيء البرتغاليين إلى شرقي أفريقيا

رأينا أن حسن بن علي اتخذ من كيلوا موطنًا له عام ٩٧٥م، وقد وصل البرتغاليون إلى شرقي أفريقيا عام ١٤٩٧م، وتعرف فترة الخمسمائة عام بين وصول حسن بن علي وبين وصول البرتغاليين بفترة (إمبراطورية الزنج). وتعني كلمة زنج: السود، واستخدمها الكتّاب العرب والفرس في الإشارة إلى الساحل الشرقي لأفريقيا بأنه «أرض السود»، أو زنجبار، وفي الأيام السابقة أطلقت كلمة زنجبار أو «أرض الزنوج»، على منطقة الساحل الشرقي لأفريقيا بأكملها.

وأثناء فترة إمبراطورية الزنج، قامت على طول الساحل بعض الدول العربية والفارسية أو السلطنات، وتمتعت دولة كيلوا الشيرازية بالسيادة على معظم المدن الساحلية الأخرى؛ ولذلك سُمّيت إمبراطورية.

وازدهرت خلال هذه الفترة تجارة الذهب والعاج والرقيق بين ساحل أفريقيا وآسيا. وتطورت المُدُن والمراكز التجارية على الساحل حجمًا ورخاءً، وما زالت أطلال هذه المدن تنتشر للآن على طول الساحل. ومارست كيلوا باعتبارها أقوى هذه الدول الساحلية نفوذًا كبيرًا على ثقافة المنطقة كلها، وقد كانت فارسية الصبغة أساسًا. وترك التزاوج بين المستوطنين والفرس والسكان الوطنيين علامة دائمة على سكان منطقة الساحل الذين يؤكّدون حتى اليوم أنهم من أصل شيرازي.

وأنشأ الشيرازيون كثيرًا من المساجد الجميلة، تحمل أسلوبًا هندسيًا مميزًا، يمكن تمييزه بسهولة في أطلال المساجد الكثيرة على طول الساحل.

وقد أطاح البرتغاليون بإمبراطورية الزنج.

ففي خلال القرن الخامس عشر حاول الملاحون البرتغاليون البحث عن طريق بحري إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أقصى نقطة جنوبية في أفريقيا. وجدير بالذكر أنه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس أعقبتها عصور الظلام التي عاشت أوروبا خلالها في حالة من الفوضى، والجهل، وإراقة الدماء حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر اللذين عُرِفا بـ«عصر الاكتشافات»، ولم تكن هناك صلة تُذكر بين أوروبا وأفريقيا؛ ولذلك لم يكن الأوروبيون يعرفون الكثير عن حجم أفريقيا الحقيقي. وكل ما توصلوا إلى معرفته، أنه إذا أبحرت سفينة إلى ساحل أفريقيا ودارت حول نهاية القارة، فإنها يمكن عندئذ أن تصل إلى الهند بالإبحار شرقًا عبر المحيط الهندي.

ولم يتحقَّق أول نجاح كبير في هذا الصدد إلا عام ١٤٨٦م، عندما دار الملاح البرتغالي بارثولوميو دياز حول الطرف الجنوبي لأفريقيا، وأبحر على طول الساحل الشرقي حتى بحر الأسماك الضخمة. ورفض بحارته المضي إلى أبعد من ذلك خوفًا من قسوة الجو، واضطر للعودة إلى وطنه؛ وبسبب الرياح القوية اختار تسمية الرأس الجنوبي برأس العواصم؛ ولكنه عندما أبلغ ملك البرتغال بمغامرته، اقترح عليه الملك تسميته برأس الرجاء الصالح.

وبوصوله إلى تلك المنطقة يكون قد مهَّد الطريق إلى استكشاف الطريق إلى الهند.

بعد ذلك بعشر سنوات وصل مكتشف برتغالي آخَر هو فاسكو دي جاما

إلى الهند عن هذا الطريق. فقد غادر لشبونة في ٨ يوليو ١٤٩٧م، ودار حول رأس الرجاء الصالح في ديسمبر، وأبحر على طول الساحل الشرقي، وتوقف في موزمبيق في ٢ مارس ١٤٩٨م. ثم واصل السير على طول الساحل الشرقي، ورسا في ممباسة في ٧ أبريل ١٤٩٨م. بعد أن أصيب بنكسة وهو يحاول دخول ميناء ممباسة واصل السير إلى ماليندي، حيث استقبله السكّان بالكرم والترحاب. ومن هناك رافقه البحّار العُماني أحمد بن ماجد الذي تولّى قيادة بقية الرحلة عبر المحيط الهندي. وقد غادر ماليندي بعد توقُّف تسعة أيام، ووصل كلكتا بالهند في ٢٨ مايو ١٤٩٨م، وبعد حوالي قرن من الاكتشافات وصل البرتغاليون أخيرًا إلى الهند بحرًا عن طريق جنوب أفريقيا وذلك بمساعدة العُمانيين. وجدير بالذكر أن فاسكو دي جاما وجد في كل من موزمبيق وماليندي، عربًا يستوطنونهما، ولغة عربية يجري التخاطب بها على نطاق واسع.

وأثناء عودة فاسكو دي جاما من الهند بعد حوالي عام توقف مرة أخرى في ماليندي، وأقام نصبًا تذكاريًا من الحجر في منطقة البحر في جنوب المدينة. وما زال هذا النصب التذكاري قائمًا هناك، ويعتبر من أبرز المواقع السياحية في كينيا. وقد عاد فاسكو دي جاما إلى لشبونة في سبتمبر ١٤٩٨م.

وعقب رحلة فاسكو دي جاما التجارية إلى الهند بدأ البرتغاليون في الحال يرسلون بعثات تجارية منتظمة إلى الهند والشرق. وبدأت سفنهم تظهر شيئًا فشيئًا في مياه المحيط الهندي، وفي منتصف القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد أنشأوا إمبراطورية تجارية كبيرة في الشرق ضمَّت هرمز عند مدخل الخليج، وموانئ مسقط وصحار وقريات في عُمان، ومحطات تجارية مختلفة على طول الساحل الغربي للهند، وأجزاء من سيلان وملقا، وعدد من الممتلكات في خليج الملايو.. كذلك أصبح الساحل الشرقي من أفريقيا

جزءًا من تلك الإمبراطورية الواسعة. وعامًا بعد آخَر كانت ثروات الشرق تنقل عبر المحيط الهندي إلى البرتغال، التي حقَّقت تطُّورًا كبيرًا في القوة والازدهار.

وأدرك البرتغاليون بعد هذا النجاح أنه لا بد لهم من السيطرة على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى تكون لهم مجموعة من الموانئ المناسبة تحصل منها سفنهم على الماء والطعام الذي تحتاج إليه في رحلاتها الطويلة، وأن تصبح مثل هذه الموانئ نوعًا من المحطات في منتصف الطريق بين البرتغال والشرق. ولم يعتبر البرتغاليون ممتلكاتهم في شرقي أفريقيا، في أهمية المناطق الغنية الخاضعة لهم على الجانب الآخَر من المحيط الهندي.

وكان إخضاع البرتغاليين للساحل الشرقي من أفريقيا ثم سقوط إمبراطورية الزنج فيما بعد - قد بدأ عام ١٥٠٢م عندما قام فاسكو دي جاما برحلته الثانية إلى الهند.

ففي طريق رحلته توقف في كيلوا وأرغم السلطان على التعهد بدفع مبلغ سنوي لملك البرتغال. وفي العام التالي جاء قائد برتغالي آخَر يُدعى روي لورانزو رافاسكو وظلّ يبحر في المياه المطلّة على جزيرة زنجبار لمدة شهرين، واستولى خلال هذه الفترة على عشرين من السفن الشراعية المحمَّلة بالعاج، وأصداف السلاحف، والشمع والحرير والمنسوجات القطنية. وحاول حاكم زنجبار الذي ساءته تلك الغطرسة مقاومة البرتغاليين بتجهيز كل مدافعه والاستعداد بجيش من أربعة آلاف مقاتل؛ لكن رافاسكو تغلَّب عليه بسفنه المجهزة بالمدافع، وأرغمه على توقيع تعهد بدفع ١٠٠ من العملة الذهبية (تساوي في ذلك الحين ٨٧ إسترلينيًا) و(٣٠ من قطعان الماشية سنويًا). وفي عام ١٥٠٥م ذهب حاكم الهند البرتغالي دون فرانسيسكو دالميدا إلى كيلوا وهو في طريقه إلى الهند.

وحيث أن السلطان لم يدفع المبلغ الذي تعهد بدفعه لفاسكو دي جاما فإن دون فرانسيسكو دالميدا أنزل ٥٠٠ من رجاله إلى كيلوا وأحرقوها. كما عزلوا الحاكم وعيَّنوا بدلًا منه رجلًا يُدعى محمَّد أنكوني.

ولم يجد سكان كيلوا خيارًا سوى الموافقة على أن يدفعوا سنويًا ٢٠٠٠ من العملة الذهبية والاعتراف بسيادة ملك البرتغال عليهم. ثم مضى ألميدا إلى ممباسة، حيث أرغم حاكمها على الاستسلام. ولما رفض قَصَف ألميدا المدينة وأحرقها. وفي نفس العام بدأ البرتغاليون بناء قلاع من الحجر في كيلوا وسوفالا. وأرغموا سلطان لامو على الاستسلام في العام التالي، ودفع ضريبة سنوية لهم.

وفي عام ١٥٠٩م عيّن ملك البرتغال، دون كوارت دي ليموس حاكمًا على جميع الممتلكات البرتغالية في أفريقيا والجزيرة العربية، ثم زاد الحاكم الجديد جزر مافيا وبيمبا وزنجبار من أجل جمع المبالغ التي لم يدفعها الأهالي. وأذعن سكان مافيا؛ لكن أهالي بيمبا لجأوا إلى ممباسة وأخذوا معهم معظم ما يملكون. كذلك قاومت زنجبار الحاكم. فقام البرتغاليون بالاستيلاء على زنجبار ونهبها، وأرغموا سكانها على الفرار إلى الأدغال.

وكما اتضح بعد ذلك. وفي وقت قصير نسبيًا ـ فإن جميع المدن الساحلية الهامَّة قد وقعت تحت سيطرة البرتغاليين، وأنها أُرغمت على دفع الأتاوة السنوية لملك البرتغال. ودرج البرتغاليون على الإبقاء على السلاطين المحليين كحكَّام اسميين طالما أنهم ينفذون سياسة البرتغاليين، ويواظبون على دفع المبلغ المقرَّر عليهم سنويًا.

وقد وقعت أحداث عديدة في القرن السادس عشر على الساحل الشرقي لأفريقيا بعد أن جعل البرتغاليون من أنفسهم سادة المنطقة، ولم تخضع مدينة ممباسة سلميًا لحكم البرتغاليين وقد سببت لهم متاعب كثيرة. وكانت

ماليندي من ناحية أخرى على علاقة طيبة بالبرتغاليين منذ وصول فاسكو دي جاما، وظلّت كذلك زمنًا طويلًا خلال سيطرة البرتغال على شرقي أفريقيا. كذلك أصبحت جزيرة زنجبار على علاقة صداقة بهم، وبمرور الوقت استثنيت من دفع الضريبة السنوية. بينما ظلّت جزيرة بيمبا على عداء مستمر إزاءهم، وكانت تؤيّد شعب ممباسة في انتفاضاته ضدّ الحكم البرتغالي.

وعُيِّن مسؤول برتغالي يُدعى: نونودا كونها، حاكمًا عامًّا في الهند عام ١٥٢٨، وقد توقّف وهو في طريقه لتولّي منصبه في زنجبار، حيث تلقّى عدّة شكاوى من الأهالي عن استمرار إثارة جيرانهم في ممباسة للمتاعب، وقيامتهم بأعمال عدوانية.

وقد قرّر، نونودا كونها، في الحال أن يلقّن شعب ممباسة درسًا قاسيًا، فشنّ هجومًا على ممباسة، بمساعدة قوة من الجنود المحليين، قدّمهم إليه حاكما زنجبار وماليندي، وأرغمت ممباسة في النهاية على الاستسلام، وفرض على شعبها ضريبة سنوية كبيرة من الذهب.

وقد حدث بعد ذلك عندما علم حاكم ممباسة بمرض الحاكم البرتغالي أن تصوّر أنّه يمكنه تأجيل تنفيذ الأوامر التي كان الحاكم البرتغالي قد أصدرها، فغضب نونودا كونها، وأحرق مدينة ممباسة، ودمّر مزارع جوز الهند بها.

ثم استقل سفينته وأبحر إلى الهند، وقد أدّت هذه العقوبة إلى استسلام شعب ممباسة للسيادة البرتغالية، ولم تعد ممباسة مصدر متاعب للبرتغاليين خلال فترة طويلة بعد ذلك.

وخلال السنوات الخمس التالية حكم البرتغاليون كل المنطقة الساحلية من باراوا وحتى كيب كورينتز بدون أن يواجهوا أية متاعب. وكان حكمهم

يتسم بالطغيان والقوة؛ ولذلك كرههم الأهالي كراهية شديدة. وتعوَّد الأهالي أن يطلقوا على الحاكم البرتغالي اسم «عفريت» (شيطان).

❁❁❁

ولم يتحمَّل سكان المنطقة الساحلية، الحكم البرتغالي طويلًا، فقاموا بالثورة على طول الساحل، وتوالت ثوراتهم حتى نهاية القرن السادس عشر.

وفي عام ١٥٨٦م وصل إلى شرقي أفريقيا قرصان تركي يُدعى علي بك، وزعم أنه موفد من سلطان تركيا ليخلِّص مسلمي شرقي أفريقيا من طغيان الحكم البرتغالي. واستقبله حكَّام كيزمايو، وفازا، ولامو، وممباسة، أحسن استقبال. وقاتل البرتغاليين، وطردهم من معظم مستوطناتهم. وبعد ذلك أبحر إلى البحر الأحمر، حاملًا معه قدرًا كبيرًا من الغنائم، وخمسين أسيرًا برتغاليًّا.

وقام حاكم ماليندي - الذي كان يتعاون مع البرتغاليين - بإبلاغ نائب حاكم الهند في الحال بما جرى، فأقلع أسطول برتغالي مكوَّن من ١٨ سفينة في العام التالي من جوا؛ لمعاقبة سكان المدن التي شاركت في ذلك التمرُّد.

وفي عام ١٥٨٩م عاد علي بك إلى شرقي أفريقيا، واستُقْبِل في ممباسة، حيث بدأ في الإعداد لحملة ضدَّ مدينة ماليندي. وعندما علم نائب الحاكم في الهند بعودة علي بك، أرسل أسطولًا من عشرين سفينة إلى ممباسة لمنع تكرار التمرُّد.

وفي هذه الفترة نشأ موقف غير عادي في ممباسة. فقد وصلت من داخل القارة قبيلة من المتوحشين تسمَّى وازيمبا. وهم قبيلة من أكلة لحوم البشر تعيش جنوب نهر زامبيزي. وقد ظلَّت لعدة سنوات تتنقل في اتجاه الشمال على طول الساحل، وتخرب المدن التي تمر بها. وقد استولت في عام ١٥٨٧م على كيلوا، وبعد تدميرها أكل أفرادها معظم الذين وقعوا في أسرهم.

وواصلت تقدّمها على طول الساحل حتى وصلت إلى ممباسة قبيل وصول الأسطول البرتغالي الذي أُرسل لإخماد التمرد الذي دبَّره علي بك؛ ولذلك وجد سكان ممباسة أنفسهم بين نارين، فإلى جانب المدينة على البر يتربص بهم الوازيمبا، ومن ناحية البحر يرسو الأسطول البرتغالي.

ووجد الوازيمبا صعوبة في دخول المدينة بسبب تحصيناتها؛ ولكن الأهالي سمحوا لهم في النهاية بالدخول بعد أن أقنعوهم بأنهم سيقاتلون معهم ضدَّ البرتغاليين. لكنهم ما إن دخلوا المدينة حتى انقلبوا على سكَّانها وذبحوهم. وألقى الذين استطاعوا الهرب، بأنفسهم في البحر ليقضي عليهم البرتغاليون الذين كانوا في انتظارهم. ووقع علي بك نفسه في الأسر ونُقِل إلى البرتغال.

ثم واصل الوازيمبا تحركهم شمالًا وهاجموا ماليندي، لكنهم هُزِموا على يد البرتغاليين، وقضي عليهم تمامًا. فقد ساعد الواسيجيجو البرتغاليين ضدَّ الوازيمبا، وهم قبيلة أخرى بدائية جاءت إلى ماليندي من المناطق الداخلية عام ١٥٧١م.

ولم تكن جزيرتا بيمبا وزنجبار قد تعرضتا لمتاعب من الوازيمبا، كما لم تنضم زنجبار للتمرد الذي دبّرته ممباسة.

وفي عام ١٥٨٧م ذبح سكان بيمبا في ليل واحدة جميع البرتغاليين المقيمين في المدينة، رجالًا ونساءً وأطفالًا.

ولقي رئيسهم ـ الذي تعاون مع البرتغاليين ـ نفس المصير؛ لكنه تمكَّن من الهرب في آخِر لحظة إلى ماليندي.

وفي نفس الوقت ـ ورغم أحداث عام ١٥٨٩م الرهيبة ـ فإن سكان ممباسة استمروا في إثارة المتاعب للبرتغاليين وهو ما دفع البرتغاليين إلى مهاجمة

ممباسة مرة أخرى عام ١٥٩٢م، وتعيين حاكم ماليندي سلطانًا على ممباسة. وقرَّر البرتغاليون اتخاذ ممباسة عاصمة لممتلكاتهم في شرقي أفريقيا إدراكًا منهم لأهميتها وتحصينها. وقرَّروا في عام ١٥٩٣م بناء قلعة حصينة سُمِّيت قلعة المسيح. ووصل أسطول برتغالي إلى ممباسة للمساهمة في العمل ولمواجهة أي اضطرابات.

وفي حوالي هذه الفترة زارت أول سفينة تجارية بريطانية المحيط الهندي، وبذلك لم يعد البرتغاليون حكامًا بلا منازع يتمتعون بأرباح التجارة، رغم أنهم كانوا أول الأوروبيين الذين يقيمون تجارة بحرية ضخمة مع الشرق.

وبينما كان القرن السادس عشر يوشك على الانتهاء. فإن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز بدأوا يظهروا في الشرق كمنافسين خطرين للبرتغاليين.

وفي عام ١٦٠٠م شكَّل عدد من تجار لندن الأثرياء شركة الهند الشرقية بغرض التجارة مع الشرق. وكانوا قد بعثوا قبل ذلك ببضع سنوات في عام ١٥٩١م بعثة إلى جزر الهند الشرقية لاستطلاع إمكانيات التجارة مع تلك المناطق. وكانت هذه البعثة تتكوَّن من ثلاث سفن. إحداها تُسمَّى «إدوارد بونافينتير» ويقودها سير جيمس لانكستر، ووصلت زنجبار في ٧ نوفمبر ١٥٩١م، وظلَّت هناك حتى ١٥ فبراير ١٥٩٢م، ثم واصلت رحلتها إلى جزر الهند الشرقية، وقد أعجب الزوَّار الإنجليز بخصوبة أرض زنجبار وبكرم شعبها.

وبالطبع لم يكن البرتغاليون سعداء بوصول أوروبيين آخَرين إلى الساحل وإلى مياه المحيط الهندي، حيث كانوا يرغبون في بقاء كل تجارة الشرق في أيديهم؛ ولذلك حاولوا أن يحرِّضوا السكان ضدَّ الإنجليز باتهامهم بالوحشية، وبأنهم يأكلون أسراهم؛ لكن هذه الأكذوبة لم تحقِّق الغرض منها، فخلال إقامة الزوَّار الإنجليز في زنجبار كانت تصرفاتهم ودِّيَّة مع الأهالي.

وشهدت بداية القرن السابع عشر، ظهور عدد من السُّفن الإنجليزية في أماكن مختلفة على طول الساحل وكانت في طريقها إلى الهند. وفي عام ١٦٠٨م وصلت سفينة إنجليزية اسمها «أتشينسيون» إلى بيمبا للتزوُّد بالماء، واستقبلها الأهالي في البداية بالود؛ لكنهم - بسبب تحريض البرتغاليين - انقلبوا عليها وهاجموا بعض بحّارتها أثناء تزوّدهم بالماء.

وفي العام التالي وصلت سفينة إنجليزية أخرى تسمَّى «بونيون» إلى زنجبار. وعومل ركابها معاملة جافة من البرتغاليين. واعتقل البرتغاليون ثلاثة من بحارتها كانوا قد وصلوا إلى الشاطئ في قارب صغير. وأمام هذا التطور غير المتوقع هرب الباقون بالقارب إلى السفينة.

وكان واضحًا من سلوك البرتغاليين أنهم باتوا منزعجين للغاية من وصول أعداد متزايدة من السُّفن الإنجليزية في طريقها إلى الهند. ومع بداية القرن السابع عشر بدأت سيادة البرتغاليين على الشرق تتعرَّض للتهديد.

❁ ❁ ❁



البرتغاليون في عُمان

رأينا كيف وصل فاسكو دي جاما إلى كلكتا في الهند، وكيف أرسل ملك البرتغال، فرانسيسكو ليحكم الهند. وكان البرتغاليون قبل وصولهم إلى الهند حكَّامًا على المستوطنات الواقعة على امتداد ساحل شرقي أفريقيا. وكان اهتمامهم الأساسي في ساحل شرقي أفريقيا هو أن تكون لهم موانئ يتوقفون بها أثناء رحلاتهم الطويلة إلى الهند، للراحة، والحصول على الماء والطعام، والقيام ـ إن أمكن ـ بقدر من التجارة؛ لكنهم كانوا أكثر اهتمامًا بالتجارة مع الدول الأكثر ثراء في الشرق. وبعد رحلات متكرِّرة خلال فترة تتراوح بين عشر وخمس عشر سنة، جعلوا من أنفسهم سادة على المحيط الهندي، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة لهم؛ لأن المحيط الهندي كان وقتئذٍ تحت سيطرة العرب وبعض الدول الشرقية.

ولما كان حاكم كلكتا لا يشعر بود نحو البرتغاليين ولا يطيق رؤيتهم في بلاده، فإنهم مضوا جنوبًا في الهند ووصلوا كوتشين، حيث شيَّدوا قلعة بها. ومن كوتشين هاجموا السفن العربية في بحر العرب. وفي عام ١٥٠٩م قابل ألميدا أسطولًا من السفن العربية والمصرية فهزمه. وبذلك استولى على تجارة المحيط الهندي من العرب وأصبحت بعدها في يد البرتغاليين.

وقام ألفونسو دالبوكيرك ـ الذي عُيِّن نائبًا للملك في الهند بعد ألميدا ـ

بالجهد الأكبر لتحويل البرتغال إلى قوة تجارية رئيسة في الشرق. واختار أماكن ليقيم فيها البرتغاليون قلاعًا لحماية سفنهم على طرق التجارة الرئيسة، كما تساعدهم هذه القلاع على منع العرب من استخدام تلك الطرق.

وجدير بالذكر أن العرب تبادلوا التجارة في الماضي مع فارس والشرق الأوسط عن طريق منطقة الخليج، ومع مصر عن طريق البحر الأحمر؛ ولذلك أراد البوكيرك أن يضع حدًّا لتلك التجارة، حتى تحتكر السفن البرتغالية نقل السلع عن طريق رأس الرجاء الصالح.

وتنفيذًا لتلك الخطة استولى أولًا على هرمز، الواقعة عند مدخل الخليج، ثم استولى على سُقطرى في خليج عدن، وبعد أن استولى عليهما تأكَّد له أن السفن العربية لن تستطيع استخدام الخليج والبحر الأحمر للوصول إلى موانئ الشرق الأوسط من المحيط الهندي.

ومن هرمز توجَّه البوكيرك إلى عُمان، وعندما وصلها عام ١٥٠٧م (ويذكر بعض المؤرخين أن ذلك حدث عام ١٥٠٨م) أحرق أسطولًا للصيد في رأس الحد، ثم هدَّد سكان مدينة قلهات الذين دانوا له، فقد كانوا غير مجهزين للدفاع عن أنفسهم.

وقد أظهر سكان قريات استياءهم من الأعمال الوحشية التي ارتكبها البوكيرك، فرد على موقفهم هذا باقتراف مزيد من الفظائع، وحرق المدينة، ودمَّر معالمها، ثم غادرها إلى مسقط، وقد أثرت اهتمامه بمزارعها وحدائقها وأسواقها، التي كانت تزخر بمختلف السلع، ومن ذلك الوقت أعلنت مسقط كجزء من مملكة هرمز البرتغالية.

وقد وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط وأبدى إعجابه بها وبروعتها، وقرَّر إخضاعها لسلطان البرتغال، وفرض عليها جزية سنوية.

وقبـل أن يبدأ التفاوض حول مطالبه غيَّر رأيه بسـرعة وأَمـر رجاله بنهب المدينة وتدمير كل السُّفن الراسية في مينائها. وتعرَّض الأهالي للقتل، أما الذين بقوا منهم على قيد الحياة فقد قطعت آذانهـم وأنوفهم، ثم تقدَّم البوكيرك نحو صحار، وخور فكَّان ومنها إلى هرمز حيث استولى عليها في أكتوبر ١٥٠٧م.

وأقام البرتغاليون في الفترة من ١٥٠٧ - ١٦٥٠م إمبراطورية تجارية قوية في منطقة المحيط الهندي، وكان اهتمامهم الأساسـي ينصب على التجارة، ولم يكن لديهم اهتمام بالسكَّان المحليين للمُدُن الساحلية التي أخضعوها. وكلما التزم الناس الهدوء تُركوا ليعيشوا في سلام؛ ولكنهم كانوا يتعرَّضون لعمليات قمع إذا أثاروا المتاعب.

ولم يكن ساحل عُمان مركز النشاط التجاري البرتغالي؛ ولكن كان جزءًا هامًّا من تلك العمليات، وقد أقام البرتغاليون خلال إقامتهم في المنطقة أربع قواعد رئيسـة على طول السـاحل في قريات، ومسـقط وقلهات، وصحار. واعتبرت قاعدة مسـقط أكثرهـا أمانًا؛ ولذلك أصبحت مركز نشـاطهم كله. وأصبحت هرمز العاصمة الإقليمية.

وشُـيِّدت مجموعة من المباني اسـتكملت حوالي عـام ١٥٣١م واحتلت مسـاحة كبيرة قرب مكتب الجمارك في مسـقط، في مواجهة قلعة الميراني وسُـمِّيت بالجزيرة، وكانت تضمُّ قصر الحاكم، وثكنات عسـكرية، ومخزنًا للسـلاح، ومصنعًا، وكنيسـة. وكانت مركزًا للإدارة البرتغالية. وقد ظلَّ أحد هذه المباني قائمًا، ويُعرف باسم بيت جريزة، وقد تم هدمه وإعادة بنائه على نفس النمط الهندي للمحافظة على شكله التاريخي. ويقال: إن هذا المبنى قد اسـتُخدِم كقصر مؤقت للسـيِّد سـلطان بن أحمد من عام ١٧٩٣م حتى عام ١٨٠٠م، عندما اسـتكمل بناء قصره. ويوجد الآن فوق نفس موقع هذا القصر، القصر الجديد الذي بناه جلالة السلطان قابوس بن سعيد.

وفي عام ١٥٢٧م بدأ البرتغاليون في بناء قلعتي الجلالي والميراني.

وقد تم تجديد قلعــة الجلالي عام ١٥٨٧م والميرانــي عام ١٥٨٨م، حيث اتخذتا شكلهما الحالي. وقد بنى مليشوار كالكا قلعة الجلالي، وكانت تسمى قلعة ســان جواز، وبنى دون مانويل دي ســوزا كوتينهو قلعة الميراني التي كانت تُسمَّى قلعة كابتن.

وقد توفي البوكيرك عام ١٥١٥م؛ لكن البرتغاليين لم يتوقفوا. فقد تحرَّكوا بحرًا في اتجاه الشرق ووصلوا إلى الصين واســتولوا على جزيرة ماكاو عام ١٥٥٧م.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشــر حدث تدفق للتجار الأوروبيين الآخَرين من هولندا وبريطانيا وفرنسا، وبدأوا يهتمون بمنطقة الخليج.

❁ ❁ ❁



٧
انهيار البرتغال

مع اقتراب نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بدأت قوة البرتغاليين في الشرق في الأفول. وأوجد ظهور دول أوروبية أخرى في المحيط الهندي تحديًا للاحتكار الذي كان البرتغاليون يتمتعون به من قبل في هذه المنطقة. يضاف إلى ذلك أن الأمراض الاستوائية والمعارك المستمرة التي أدَّت إلى تناقص عدد المستوطنين البرتغاليين في المنطقة إلى الحدِّ الذي أصبح فيه من العسير وجود ما يكفي من الرجال لحراسة ممتلكاتهم الممتدة على مناطق واسعة.

وكانت الكراهية العنيفة لهم من الناس الذين أخضعوهم، سببًا آخَر عجَّل بانهيار البرتغاليين. ففي القرن الأول من ظهور سلطتهم في الشرق، ارتكبوا كثيرًا من الأعمال الوحشية، والغدر بالناس، والاستيلاء على أموالهم، ولم يفعلوا شيئًا لاكتساب ودٍّ أو احترام رعاياهم. ولم يكن غريبًا ـ على ضوء قسوتهم وغطرستهم ـ أن ينتهز رعاياهم أول فرصة متاحة للتمرد على حكمهم.

وجاءت أول ضربة عنيفة لحكم البرتغاليين في عام ١٦٢٢م عندما طردهم الفرس من هرمز. وكانت جزيرة هرمز التي أخضعوها عام ١٥١١م ذات أهمية بالغة لهم؛ لأنها مفتاح الدخول إلى منطقة الخليج.

وجاء طرد البرتغاليين من هرمز على مرحلتين، الأول: تولى الشاه عباس العرش في فارس عام ١٥٨١م، والثاني: حدوث أول اتصال لبريطانيا مع فارس من خلال بعثة شـيرلي عام ١٥٩٨م. وقد أعقب هذه البعثة منح شـركة الهند الشـرقية في عام ١٦٠٠م، امتيازًا يسـهِّل لها إقامة مصالح بريطانية في منطقة المحيـط الهندي. وقد نتج عـن اتصـال البريطانيين مع الشـاه عباس منح بريطانيا مركزًا تجاريًّا في جزيرة جاسك على ساحل هرمز عام ١٦١٦م.

وكان الشاه عباس مهتمًا بطرد البرتغاليين من هرمز.

بينما كان اهتمـام بريطانيا منصبًّا على توسـيع مصالحهم التجارية. وقد وحد الجانبـان قواتهما عام ١٦٢٢م ونجحـا في طرد البرتغاليـن من هرمز. وامتنعت شـركة الهند الشـرقية عن مشـاركة الفرس في مزيد من الغزوات خاصَّة ضدَّ مسـقط، ومضى الشـاه وحده فقام بالاسـتيلاء على خور فكان وصحار، وأنشـأ قاعدة جديدة فيما يعرف الآن ببندر عباس التي سمَّاها على اسمه.

وامتد طرد البرتغاليين من هرمز بسـرعة إلى الشـرق، وقد شجع شعوبًا أماكن أخرى على التمرد عليهم.

ولذلك وقعت انتفاضات خطيرة عام ١٦٣١م في كل الدول السـاحلية. في شرقي أفريقيا. وبدأت الثورة في ممباسة التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للسلطان يوسف، وكان هذا السلطان قد تعلّم في جوا على يد البرتغاليين، ثم تحول إلى اعتناق المسـيحية علـى أمل أن يتمكن من إبقاء ممباسـة موالية للبرتغاليين بعد تعيينه سـلطانًا؛ وذلـك للحفاظ على مركزه. لكن سـلطان ممباسة بدأ في التمرد على الحاكم البرتغالي لممباسة؛ بسبب إجراءات القمع الوحشـية التي يتخذها. وفي عـام ١٦٣١م حـدث نزاع خطير بيـن الحاكم

البرتغالي والسلطان يوسف، فجمع في السر ٣٠٠ من الجنود الوطنيين واقتحم القلعة وانهال على الحاكم طعنًا حتى المـوت. وانطلق من القلعة إلى الحي البرتغالي في المدينة وأحرقه تمامًا وقتل جميع السكان البرتغاليين. أما الذين نجوا من الموت فإنهم لجأوا إلى دير مجاور واحتموا به لمدة سبعة أيام. ثم وافقوا على الاستسلام للسلطان يوسف بشرط المحافظة على حياتهم؛ ولكن ما إن بدأوا فـي مغادرة الدير حتى قتلهم جنود يوسـف. وبذلك فقد حوالي مائة برتغالي حياتهم.

وعندما ذاعت أنباء هذا الحادث، بـدأت ثورة عامَّة ضدَّ البرتغاليين على طول السـاحل. وأخذت بيمبا دورًا رئيسًـا في هذه الثورة. وفي الوقت نفسه وصلـت الأنباء المفزعـة إلى نائب الملك في الهند، الذي أسـرع بإرسـال أسطول لمعاقبة المتمردين. ورسا الأسطول في ممباسة في يناير ١٦٣٢م، وبدأ في محاصرة المدينة. وبعد حصار اسـتمر ثلاثة شـهور، بدون أن يحقق أي نتيجة، قرَّر القائد البرتغالي العودة إلى الهند لتجهيز قوة أكبر. وترك سفينتين لحراسة مدخل الميناء. وبعد رحيله استولى يوسف على السفينتين.

ولأن يوسف كان يعرف أن البرتغاليين سوف يعودون بقوة أكبر، فإنه قرر الهرب. ومن ثم قام بتجريد القلعة من تجهيزاتهـا ودمَّر المدينة، وأبحر إلى الجزيرة العربية. وطوال العامين اللاحقين سـبَّب يوسف للبرتغاليين متاعب مستمرة بمهاجمة ونهب مسـتوطناتهم في مدغشـقر، وجزر الكومور، وفي داخل القارة؛ ولكنه قتل في نوفمبر ١٦٣٨م عندما كان يقاتل ضدَّ بعض العرب وكان هذا آخِر سلاطين ممباسة.

وفي نفس الوقت عاد البرتغاليون إلى ممباسـة وعاقبوا المتمردين على طول السـاحل بقوة بالغة. وفي عام ١٦٣٥م كان يبدو أن البرتغاليين قد أعادوا فرض سـيطرتهم على ساحل شـرقي أفريقيا؛ لكن انتصارهم لم يدم طويلًا،

لأن عنصرًا جديدًا ـ هم العُمانيون العرب ـ قد بدأ يظهر على المسرح هذه المرة فقضى نهائيًا على سيطرة البرتغاليين على المنطقة.

ولعب شعب عُمان دورًا هامًا في طرد البرتغاليين من عُمان، وكذلك من الساحل الشرقي لأفريقيا.

إن الروح الاستقلالية لدى العُمانيين قد جعلتهم ينظرون إلى سيطرة البرتغاليين كتجربة مريرة، فكانوا يتلهفون إلى الفرصة التي يستعيدون فيها استقلالهم.

ولذلك فقد بدأت بعد هزيمة البرتغاليين في هرمز عام ١٦٢٢م موجة نشطة ضدَّ الأجانب. وقد حقَّقت هذه الموجة هدفها أثناء حكم الإمام سلطان بن سيف، وبعد ١٥٠ عامًا من السيطرة البرتغالية، انتقم العُمانيون لأنفسهم في النهاية وذلك في ٢٣ يناير ١٦٥٠م.

وقد خلف الإمام سلطان بن سيف عمه عام ١٦٤٩م، وكان عمه قد نجح في مساعيه لطرد البرتغاليين من الساحل العُماني. وعندما انتُخب الإمام سلطان إمامًا، فإنه قرَّر إنهاء المهمة بطرد البرتغاليين من مسقط؛ ولذلك خرج على رأس جيشه من عاصمته الرستاق وقام بعدة هجمات غير ناجحة على المدينة؛ بسبب تعزيز البرتغاليين لدفاعاتهم في مسقط بعد طردهم من هرمز.

ونصح تاجر هندي يقيم في مسقط يُدعى ناروتيم الإمام سلطان بن سيف بشنِّ هجومه في أحد أيام الأحد، وكانت لناروتيم ابنة يرغب القائد البرتغالي في الزواج منها، ولم يجد مهربًا من إتمام هذا الزواج سوى طرد البرتغاليين من البلاد؛ ولذلك كتب خطابًا للإمام سلطان يقترح عليه القيام بهجومه في يوم أحد، وقام في الوقت نفسه بإقناع القائد البرتغالي لحامية مسقط، بأن يفرغ صهاريج المياه في قلعتي الجلالي والميراني، وكذلك نقل البارود

والذخيرة من مخازنها، على أساس ضرورة تجديد كل شيء في القلاع، ما دام المتوقع تعرضها لحصار طويل.

وفي يوم الأحد ٢٣ يناير ١٦٥٠م شنَّ سلطان بن سيف هجومًا عنيفًا، واكتشف أن جميع الجنود البرتغاليين كانوا سكارى؛ ولذلك استولى بسهولة على القلعتين.

لكن ضابطًا برتغاليًا يدعى كابريتا قام رغم كونه مخمورًا بهجوم مضادٍ على رأس مجموعة صغيرة من الجنود؛ لكنه وجد نفسه محاصرًا بالأعداء، وتقهقر إلى سوق القطن، حيث وجد نفسه معرَّضًا للهجوم بالرماح - والبيض الفاسد - كما قيل. وكانت تلك نهاية البرتغاليين في عُمان.

والإمام سلطان بن سيف ينتمي إلى أسرة اليعاربة، وشهدت المنطقة في عهده تكثيف المصالح البريطانية، وعقب نجاحه في طرد البرتغاليين عام ١٦٥٠م، استقبل الكولونيل رينزفورد الذي أرسلته شركة الهند الشرقية للتفاوض على عقد معاهدة لإقامة وجود للشركة هناك؛ لكن المعاهدة لم توقَّع بسبب وفاة رينزفورد.

وغيَّر الإمام سلطان رأيه بعد ذلك وقرَّر عدم السماح بأي وجود استيطاني أوروبي في مسقط. واتخذ خلفاؤه من بعده نفس الموقف.

وركَّز الإمام سلطان بن سيف على الاهتمام بالبحر. وقاد عُمان لأول مرة إلى طريق الرخاء الوافر داخليًا وخارجيًا. وبدأ فور قيامه بطرد البرتغاليين، ببناء بحرية قوية.

وعندما وصلت أنباء نجاحه إلى شرقي أفريقيا، قرَّر شعب ممباسة طلب المساعدة من الإمام سلطان بن سيف؛ لطرد البرتغاليين من ممباسة. وكان طبيعيًا أن يتوجهوا إليه بهذا الطلب، ليس لأنهم مسلمون

فحسـب؛ ولكن أيضًا لأن بلادهم قد عانت الكثير تحت الحكم القمعي للبرتغاليين.

ووافق الإمام سلطان على طلبهم بترحاب، وأرسل في عام ١٦٥٢م أسطولًا صغيرًا من مسـقط لمسـاعدة شـعب شـرقي أفريقيـا في جهودهـم لطرد البرتغاليين. وقد هاجم وأحرق المسـتوطنات البرتغالية فـي زنجبار وباتي. وحدثت على ضـوء نجاحه ثورات عامَّة في كل المدن السـاحلية ضدَّ حكم البرتغاليين؛ ولكن البرتغاليين صمدوا لبعض الوقت وتمكَّنوا من سحق تلك الثورات.

وعاد شـعب السـاحل يطلب من الإمام في مسقط إرسـال أسطول آخَر لمسـاعدتهم. وفي عام ١٦٦٠م عَبَر الإمام سلطان مرة أخرَى المحيط الهندي، وبعد حصار طويل نجح في الاستيلاء على ممباسة من البرتغاليين. ولم يكن ممكنًا أن يبقى الإمام سلطان بن سيف طويلًا في ممباسة وكان عليه أن يعود إلى عُمان، حيث كانت الاضطرابات قد اشتعلت هناك في غيابه. وكان ذلك تطورًا مؤلمًا لشعب ممباسة؛ لأنه ما إن غادر الإمام سلطان بلادهم حتى عاد البرتغاليون واستولوا على ممباسـة من جديد، وأنزلوا أشد العقاب بالأهالي لتمردهم. وأدى ذلك إلى زيادة كراهية الأهالي للبرتغاليين بأشـدِّ مما كانت، وصمَّم الأهالي على انتهاز الفرصة المناسبة لتنظيم ثورة جديدة.

وفي نفس الوقت مات الإمام سلطان بن سيف في عُمان عام ١٦٨٠م. بعد حكم دام ١٩ عامًا. وخلفه ابنه سيف بن سـلطان الذي تولى الحكم من عام ١٦٨٠ ـ ١٧١١م. وورث الإمام سيف عن أبيه روحه الميالة للقتال، ومن ثم فقد أكمل ما بدأه أبوه. وعاد سكان شـرقي أفريقيا يتصلون بالإمام سيف طالبين مسـاعدته بصفة عاجلة ضدَّ البرتغاليين مثلما فعل والـده، وقد عمل الإمام سيف على توسيع حجم الأسطول العُماني الذي تكوَّن من ٢٨ سفينة، وقيل:

إن أكثر سفنه كانت تحمل عددًا من المدافع، كان بعضها قد تم الاستيلاء عليه من البرتغاليين.

وقد وافق الإمام على مساعدة أهالي الساحل. وقام بنفسه في مارس ١٦٩٦م بحصار ممباسة. واستمر الحصار ٣٣ شهرًا، وفي ديسمبر ١٦٩٨م استولى الإمام سيف على قلعة يسوع، وبذلك جعل من نفسه سيِّد جزيرة ممباسة.

وقد نجح في العام التالي في طرد البرتغاليين من جزيرتي بيمبا وكيلوا، كما حاول أن يأخذ من أيديهم موزمبيق التي كانت أقوى قلاعهم على الساحل الشرقي الإفريقي على الإطلاق؛ لكنه لم ينجح في ذلك، وظلَّت موزمبيق في أيدي البرتغاليين حتى بداية السبعينات من القرن العشرين عندما استقلَّت بعد الثورة التي وَقَعت في البرتغال نفسها.

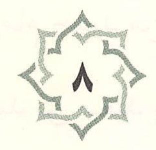
وفي عام ١٧٠٠م بالتحديد وبعد حملات عسكرية متكرِّرة، أصبح خط الساحل بأكمله من مقديشيو ثم جنوبًا إلى كيلوا تحت سيطرة عُمان، ورغم محاولات البرتغاليين المتكرِّرة لاستعادة سلطتهم هناك، إلا أنهم لم يحقِّقوا أي نجاح.

واضطر الإمام سيف للعودة إلى عُمان، حيث اهتم بتنفيذ عدد من المشروعات العامَّة، خاصَّة إعادة تشغيل قنوات الري (الأفلاج)، وتشييد قنوات جديدة، حيث كانت الحياة في عُمان تعتمد على هذه الأفلاج في الزراعة.

وفي عهده أصبحت عُمان دولة قوية ـ رغم أن أمجاده دُفنت معه عند وفاته عام ١٧١١م؛ لكن بقيت عشرات الألوف من أشجار النخيل التي زُرعت في عهده، مصدرًا لرخاء شعبه..

وبالنســبة لشــرقي أفريقيا، فقد أصبح حكم المدن الســاحلية الهامّة في أيدي العرب العُمانيين. فقــد عُيِّن ناصر بن عبــد الله المزروعي حاكمًا على ممباســة، ووضعت زنجبار تحت حكم واحد من أســرة الحرث، بينما عُيِّن أحد أفراد أســرة النباهنة واليًا على جزيرة باتي، وأصبحت بيمبا تحت حكم حاكم ممباسة.

❁ ❁ ❁



ظهور أسرة البوسعيد

شهدت عُمان سلسلة من الحروب الأهلية والمنازعات القبلية على مدى سنوات في أعقاب وفاة الإمام سيف بن سلطان.

وقد شـجَّعت تلك الأحداث البرتغاليين على القيـام بمحاولات جديدة لاستعادة ممتلكاتهم التي فقدوها على الساحل الشرقي لأفريقيا. ومن ثم فقد نظَّموا حملة نجحت في استرداد ممباسـة عام ١٧٢٧م؛ لكن هذا النجاح كان قصير الأمـد لأن العُمانيين العرب قاموا بعد سـنتين بطردهم من ممباسـة، وكذلك من أماكـن أخرى على طول السـاحل، كانوا قد نجحـوا مؤقتًا في استعادة وجودهم بها.

وقد تفاقمت الاضطرابات في عُمان عندما تولّى حفيد الإمام سـيف بن سـلطان، الإمامة عام ١٧٢٨م ـ ولم يستطع بسـبب ضعفه وعدم نضجه ـ أن يمارس سـلطاته، وقد اتخذ قـرارًا غير حكيـم، بأن طلب من شـاه فارس مساعدته في إخماد الاضطرابات المحلية في عُمان.

وقد استجاب الشاه لطلبه، وبدلًا من أن يسـاعد الإمام الشاب، فإنه قام بغزو عُمان واستولى عليها، وعَامَل الأهالي بأسلوب غير إنساني.

ولم يحتمل شعب عُمان سلوك الشاه، فقرَّر أن أفضل سبيل لإنقاذ بلادهم

من هذا الوضع السـيء، هو التخلُّص من ذلك الإمام الذي أثبت أنه ضعيف وغير جدير بمنصبه، وانتخاب إمام جديد من أسرة مختلفة تمامًا.

وفي عام ١٧٤٤م انتخب أحمد بن سعيد بن محمَّد البوسعيد إمامًا، وحيث إنه أول إمام من عائلة البوسـعيد، فإنه يعتبر مؤسِّـس أسـرة البوسعيد التي تحكم عُمان حتى اليوم. ويسـتخدم أعضاء الأسـرة الحاكمة لقب آل سعيد للتمييز بينهم وبين الأعضـاء الآخَرين من عائلة البوسـعيد الذين لا ينتمون مباشرة للأسرة الحاكمة.

وكان منصب والي صحار هو آخِر منصب يتولاَّه الإمام أحمد قبل تعيينه إمامًا لعُمان. وأثناء تولّيه صحار جمع جيشًا وقاتل الفرس الذين غزوا صحار عام ١٧٣٧م وأنزل بهـم الهزيمة. وكان الإمـام أحمد قد بـدأ حياته العملية تاجرًا، وتم ترشيحه للإمام سيف بن سلطان اليعربي كشخصية تتمتع بالكفاءة والشـجاعة وبُعد النظر، وقد أصبح بعدها ـ عندما حان الوقت ـ موضع سر الإمام ومساعده الأيمن في الشؤون التجارية.

وقد شجَّع الإمام أحمد ـ عندما أصبح إمامًا ـ التجارة، واستعادت مسقط في عهده وضعها السـابق كمدينة مزدهرة ومركز تجـاري. رغم أن عاصمته كانت مدينة الرستاق على بُعد ١٥٠ كيلومترًا من مسقط.

وكانت تمثِّل موقعًا اسـتراتيجيًّا لحفظ التوازن بين السـاحل والداخل. وخلال فترة حكمه التي استمرَّت ٣٩ عامًا، خاض حروبًا طويلةً للقضاء على التحديات التي واجهته من جهات عديدة، خاصَّة من اليعاربة، ومن الغافرين وجاءته آخِر التحديات من أنجاله أنفسـهم ـ سيف وسـلطان عام ١٧٨٢م قبل عام واحد من وفاته. وقد وقع القتال بينهما في مسقط، حيث قام الأب وابناه بقصف كل منهما الآخَر عبر الميناء. وكان الإمام أحمد يطلق نيرانه من قلعة

الميراني، وابناه يطلقان نيرانهما من قلعة الجلالي، ويحتفظان بأخيهما الأصغر سعيد كرهينة، واستطاع سعيد الهرب، فخفَّف الإمام أحمد من هجومه.

وقد توفي الإمام أحمد عام ١٧٨٣م، وخلفه ثاني أبنائه سعيد؛ لأن ابنه الأكبر هلال لم يكن أهلًا للحكم لأنه كان ضريرًا. وقد أثبت الإمام سعيد بن أحمد كفاءته كقائد ديني؛ لكنه فشل كحاكم، ولذلك انتزع ابنه حمد السلطة السياسية منه، نقل العاصمة إلى مسقط، حيث تولَّى الحكم تحت لقب السيد، وقد بقي والده في الرستاق لا يزاول أية سلطة حتى وفاته، وكان هذا فيما بين سنتَي ١٧١١ و١٨٢١م.

ولقد رأينا أن الإمام عندما عاد من شرقي أفريقيا إلى عُمان قد عَيَّن على المدن الساحلية الهامَّة في شرق عُمان حُكَّامًا من العرب العُمانيين. ونظرًا إلى أن هؤلاء الحكام كانوا يدركون الأحوال المضطربة في عُمان؛ ويعلمون أن الإمام غير قادر على التدخُّل في شؤون شرقي أفريقيا، فقد رفضوا الاعتراف بسلطة الحاكم العُماني والخضوع له، وجعلوا أنفسهم سلاطين مستقلين للمدن التي عُيِّنوا عليها.

ففي ممباسة كان الحاكم المزروعي القوي، الذي ظلّ يحكم مستقلًّا لفترة طويلة، قد فرض سيادته على كل الساحل الإفريقي من ماليندي في الشمال إلى بانياني في الجنوب، وكذلك على جزيرة بيمبا.

ومن ناحية أخرى فإن حاكم باتي الذي ينتمي إلى أسرة النباهنة قد رفض هو الآخَر الخضوع لإمام عُمان.

وقد ظلَّت عائلتا المزروعي في ممباسة والنبهاني في باتي في حرب مستمرة ضدَّ بعضهما البعض خلال جزء كبير من القرن الثامن عشر. وكانت

كل منهما ترغب في أن تكون لها السيادة على ساحل شرقي أفريقيا. ومن ثم فقد عانى شعب الساحل بصفة مستمرة من المنازعات والمنافسات بين حكَّامهم العرب المختلفين، ومن المشكوك فيه أن يكون الأهالي قد عاشوا في ظلِّهم ظروفًا أفضل من الظروف التي كانوا قد شهدوها من قبل تحت سيطرة البرتغاليين.

لكن جزيرة زنجبار ظلَّت مع ذلك على ولائها لحاكم عُمان خلال فترة الاضطرابات التي سادت ممباسة وبيمبا في بقية الساحل.

وفي عام ١٧٤٦م أرسل الإمام أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد قوات إلى زنجبار لحفظ الأمن ومواجهة المزاريع في ممباسة.

لكن الإمام أحمد لم يستطع مع ذلك زيارة ممتلكاته في شرقي أفريقيا، ولم يظهر الاهتمام النشط مرة أخرى بشؤون شرقي أفريقيا، إلا عندما أصبح الإمام السيِّد سعيد بن سلطان حفيد الإمام أحمد بن سعيد حاكمًا على عُمان في عام ١٨٠٦م.

لقد تحدَّثنا عن سيرة وأعمال السيِّد سعيد في الفصل السابق، وعلينا الآن أن نرى كيف تصرَّف إزاء موقف الحُكام العرب الذين لم يحافظوا على ولائهم لعُمان.

ولقد كان اهتمام السيِّد سعيد مركِّزًا على حلِّ المشكلات الداخلية في عُمان خلال العشرين عامًا الأولى من حكمه، ولم يكن قادرًا على إعطاء اهتمام أكبر لممتلكاته في شرقي أفريقيا، رغم إدراكه التام للمشاكل التي سبَّبها الحكَّام غير الملتزمين بسيادته في المنطقة.

وقد قرَّر بمجرد استتباب النظام في عُمان، أن يلقي بنظرة على هذه الحال غير المرضية ابتداء بممباسة.

وانطلاقًا من هـذا القرار غادر مسـقط في بداية عـام ١٨٢٨م على رأس أسـطول كبير، ووصل إلى ممباسـة، ومن هناك خاض معارك مع المزاريع انتهت بهزيمة الحكـم المزروعي الـذي أَذعن ووافق علـى توقيع معاهدة تعترف بسيادة السيِّد سـعيد. ونتيجة لذلك ترك السيِّد سعيد ٣٠٠ من الجنود البلوش في قلعة يسوع، وأبحر هو إلى زنجبار حيث مكث هناك ثلاثة شهور، ومما يذكر أن زنجبار كانت مواليـة لحكام عُمان منذ فتـرة طويلة؛ ولذلك اسـتقبل السـيِّد سـعيد هناك بحفاوة بالغة. وقد لفت انتباهه خصوبة أرض الجزيرة وموقعها الفريد على السـاحل الشـرقي. وربما بدأ يفكر أثناء تلك الزيارة في إمكان اتخاذ زنجبار عاصمة المستقبل لملكه في شرقي أفريقيا.

وغادر السيِّد سعيد زنجبار عندما بدأت الاضطرابات في عُمان. بينما عاد المزاريع إلى مهاجمة ممباسة ومنعوا الطعام عن الجنود حتى أرغموهم على الاستسلام.

وخلال ثلاث سنوات أرسل السيِّد سـعيد ثلاث حملات من مسقط ضدَّ المتمردين من رعاياه في ممباسـة. واسـتطاع القضاء على التمرُّد هناك عام ١٨٣٧م. ووقع في الأسر راشد بن سالم رئيس قبيلة المزاريع و٢٦ من أنصاره وحُكم عليهم بالسـجن المؤبَّد في بنـدر عباس التي كانـت تحت الحكم العُماني ذلك الحين؛ وبذلك عادت ممباسة لحكم السيِّد سعيد ولم تنشأ أي متاعب أخرى.

وفي عام ١٨٣٢م قرَّر السيِّد سـعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها، وأدَّى ذلك القرار إلى نقل مقر السلطة. فبدلًا من أن يحكم شرقي أفريقيا من عُمان فإنه بدأ يحكم عُمان من شـرقي أفريقيا. وقد اتخذ ذلك القرار رغم أن ممباسـة وكيلوا كانتا في ذلك الوقت أكثر أهمية من زنجبار؛ لكن السـبب الرئيس لاختياره يرجع إلى موقعها الرائع.

فهي تقع على مسافة بضعة أميال من الساحل الشرقي. وكانت زنجبار تتمتع بإمكانيات التحول إلى مركز رئيسي للتجارة في شرقي أفريقيا كلها، وكان السيِّد سعيد شديد الاهتمام بتطوير التجارة في تلك المناطق، وكان يدرك أن هناك فرصًا طائلةً للتجارة فيها. وقد أراد أن يقيم مراكز تجارية داخل أفريقيا، تبدأ من شرق زنجبار وتمتد إلى الداخل حتى الكونغو. وأدرك أن زنجبار سوف تصبح بحكم موقعها مكانًا للتجميع والتوزيع لمعظم السلع التي تأتي إلى الساحل من الداخل.

وكانت هناك عدَّة أسباب أخرى أملت على السيِّد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له. فمدينة زنجبار بها موانئ عميقة تصلح لرسو السُّفن الضخمة. كما أن الجزيرة بها موارد لا تنفد من مياه الشرب النقية، لا مثيل له على خط الساحل بأكمله. وكان يعرف أن ذلك سيجذب كثيرًا من السفن المارة وهو ما ينعش التجارة. ثم إن زنجبار كانت منطقة خصبةً جدًّا، ولا شك أن ذلك كان له أكبر الأثر على السيِّد سعيد الذي كانت له اهتمامات كبيرة بالزراعة.

لقد ثبتت حكمة قرار السيِّد سعيد بوضوح قبل نهاية عهده. فإن زنجبار التي كانت عبارة عن مجموعة صغيرة من الأكواخ يسكنها الأهالي الوطنيون قد تطورت بسرعة، وأصبحت أضخم وأهم مدينة على ساحل شرقي أفريقيا، وشجَّع السيِّد سعيد العرب على استيطان زنجبار، وتبعه الكثيرون الذين سرعان ما بدأوا في التوغّل إلى داخل أفريقيا كتجَّار ومستكشفين. وبدأ عصر من الازدهار الكبير، وانتعشت التجارة على الساحل بطريقة لم تشهدها هذه المنطقة من قبل. وكلما توغّل التجار العرب أَكثر فأَكثر إلى الداخل؛ كلما انتشر صيت ونفوذ حاكم زنجبار في أفريقيا. حتى أدَّى ذلك إلى ظهور مَثَل يقول: «عندما يعزف أحد على المزمار في زنجبار فإنهم يرقصون في البحيرات».

وفي عهد السيِّد سعيد بدأ ساحل شرقي أفريقيا يجذب من جديد اهتمام الأوروبيين بشكل جدِّي. وقد بذل السيِّد سعيد كل جهده لتشجيع التجار الأوروبيين على الإقامة في زنجبار؛ وذلك بهدف تجارة ورخاء البلاد.

وفي عام ١٨٣٣م عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية، وفي عام ١٨٣٧م افتتحت في زنجبار أول قنصلية أمريكية؛ وكان التجار الأمريكيون يشترون العاج والكوبال، وجلود الحيوانات المدبوغة التي كانت تصل من الداخل، ويبادلون تلك السلع بالمنتجات القطنية الأمريكية والمعدات الحربية، وقد أرسل السيِّد سعيد أول بعثة تجارية إلى نيويورك في عام ١٨٤٠م برئاسة أحمد بن نعمان.

وفي عام ١٨٤١م افتتحت بريطانيا قنصلية لها في زنجبار، وكان الكولونيل همرثون، من القوَّات الهندية؛ هو أول قنصل بريطاني.

وفي عام ١٨٤٤م افتتحت قنصلية فرنسية، كما عُيِّن في زنجبار قناصل للبرتغال، وإيطاليا، وألمانيا والنمسا والمجر.

وقد حظيت الزراعة باهتمام شديد من السيِّد سعيد، ويَذْكر له أهالي زنجبار دوره في زراعة القرنفل، التي يعتمد عليها أساسًا رخاء الجزيرة.

ورغم أن شجرة القرنفل أدخلت إلى الجزيرة في بداية القرن التاسع عشر، فقد كان نفوذ السيِّد سعيد وراء زراعتها بطريقة منظَّمة وعلى نطاق واسع، وكان الكثيرون في ذلك الوقت يعتقدون أن السيِّد سعيد ارتكب خطأً بتشجيع إدخال زراعة القرنفل إلى زنجبار؛ وأن سياسته ستؤدي إلى دمار كل من زنجبار وبيمبا؛ ولكن السيِّد سعيد الذي كان يتسم بالإصرار في مواقفه لم يستمع إلى تلك الآراء المتشائمة واستمر في خططه الشاملة لزراعة أشجار القرنفل في زنجبار وبيمبا.

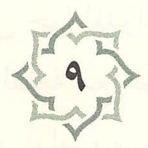
ويقال بأنه أصـدر قرارًا يقضي بزراعة ثلاثة أشـجار قرنفـل مقابل كل شجرة جوز هند؛ وأنه قرَّر مصادرة المزارع التي لم تكن تمتثل لذلك القرار، وعند وقت وفاته كان القرنفل قد أصبح ثالث أهم سلعة للتصدير في زنجبار، بينما في الوقت الحاضر تنتج زنجبار وبيمبا تسعة أعشار الإنتاج العالمي من القرنفل، وقد برهن ذلك على أن السيِّد سـعيد كان محقًّا تمامًا في تشجيعه زراعة القرنفل.

ولذلك سـوف تبقى عُمان وكذلك سـيبقى العُمانيون العرب. وسيبقى السيِّد سعيد بصفة خاصَّة، أثرًا خالدًا في تاريخ زنجبار.

وبعد وفاة السيِّد سعيد تولى الحكم ابنه السيِّد ماجد من عام ١٨٥٦م إلى عام ١٨٧٠م، ثم خلفه السيِّد برغش من عام ١٨٧٠م إلى عام ١٨٨٨م.

وفي أثناء عهد السيِّد برغش هبَّ على زنجبار إعصار رهيب دمَّر أشجار القرنفل، فصمَّم السـيِّد برغش، بإرادتـه القوية، على اسـتعادة حالة الرخاء السـابقة، بزراعة القرنفل، وعلى إدخال بعض التحسـينات في الحياة العامَّة للسكان، فأنشـأ خط أنابيب للمياه من نبع شيم شـيم إلى المدينة، مما وفَّر مياه الشرب النقية للأهالي.

❁ ❁ ❁



ممباسة وقلعة يسوع

تُعتبر ممباسة الآن مدينة مزدهرة، وقد اتّسعت تدريجيًا منذ بدأت شعوب الشرق في الملاحة التجارية بالاستعانة بالرياح الموسمية. ولم تقتصر فائدة ميناء كيلنديني على كينيا وحدها، وإنما استفادت منه أيضًا أوغندا، وتنزانيا اللتان استخدمتاه من أجل السلع المستوردة لموشي وأروشا اللتين تعتبران أقرب إلى ممباسة منهما إلى ميناء تانجا التنزاني. وممباسة جزيرة ترتبط بالبر عن طريق جسر ماكوبا كوزواي.

وقد لعبت هذه المدينة دورًا هامًّا في تاريخ الزوّار الأول لشرقي أفريقيا؛ خاصة الفرس والبرتغاليون ثم العرب الذين احتفظوا بساحل طوله عشرة أميال من كينيا، وبميناء كيليندني كامتداد للأراضي التابعة لزنجبار حتى السنوات الأولى من ستينات القرن العشرين عندما استقلّت كينيا.

وقد أضافت قلعة يسوع فصلًا جديدًا إلى التاريخ الطويل لممباسة. وقد أنشأها البرتغاليون في نهاية القرن السادس عشر، كخط دفاع مجهز، للدفاع من مدخل ميناء ممباسة، ولتأمين مركزهم على الساحل الشرقي لأفريقيا، وكان ظهور السفن التركية بقيادة علي بك في المحيط الهندي، وثورات ممباسة ضدّ البرتغاليين سببًا في رفضهم؛ لأن يبقى أفضل موانئ الساحل قاعدة لأعدائهم.

وكان محمَّد يوسف حسن الذي عيَّنه البرتغاليون سلطانًا على ممباسة بعد اعتناقه المسيحية وذهابه إلى جوا للدراسة ـ قد انقلب على سادته في ١٦ أغسطس ١٦٣١م، عندما دخل القلعة مع مجموعة من أنصاره وقتل قائدها بيترو لبتاء دي جاميوا. وأصدر أوامره من القلعة لأتباعه بإحراق منازل البرتغاليين في المدينة.

وكان محمَّد يوسف حسن قد سمى نفسه بعد اعتناقه المسيحية دوم جيروميمو شينجوليا، ولما كان يعلم أن البرتغاليون سوف يرسلون تعزيزات إلى ممباسة، فإنه هرب بعد عام وامتهن القرصنة. وقام الجنود البرتغاليون بقيادة الكابتن بيترورود ريجز بوتلو بإعادة احتلال القلعة وتجديدها.

وخلال ثلاث سنوات من ١٣ مارس ١٦٩٦م حتى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨م أصبحت القلعة هدفًا لهجوم العُمانيين العرب؛ ونتيجة لذلك دمرت بعض أجزائها.

وفي عام ١٧٤٤م حلَّت أسرة البوسعيد محلَّ اليعاربة في عُمان، وعندما علم حاكم ممباسة محمَّد بن عثمان المزروعي بالتغييرات السياسية في عُمان، أعلن استقلال ممباسة. وبعدها بخمس سنوات قتل داخل القلعة بيد أشخاص قيل أنهم أرسلوا من عُمان. واستطاع أخوه الهرب، ثم العودة بمساعدة ضابط إنجليزي، وأعلن نفسه حاكمًا.

وعقب هذا النجاح، حكم المزروعي ممباسة لفترة خلت نسبيًّا من المتاعب، حتى بدأ السيِّد سعيد بن سلطان الكبير يحول اهتمامه إلى ممتلكاته في أفريقيا.

لكن المزاريع ـ الذين تمسَّكوا بالاحتفاظ باستقلالهم وضعوا أنفسهم تحت الحماية البريطانية. ووقعت اتفاقية الحماية داخل القلعة في ٩ فبراير

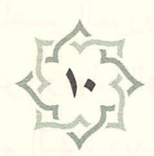
١٨٢٤م. وفي ٢٥ يوليو ١٨٢٦م سحبت بريطانيا ممثلها، وفي يوم ٧ يناير ١٨٢٨م احتلَّ السيِّد سـعيد القلعة، وعَيَّن ناصر بن سـليمان حاكمه وممثِّلًا له؛ لكنه اضطر في نهاية العام أن يستسـلم للمزروعي الذي حاصر القلعة ومنع عنها الطعام، وبعد ذلك تمكن من قتله. لكن السلطان استعاد القلعة بدون قتال في فبراير ١٨٣٧م، واستخدامها كثكنات لجنوده حتى عام ١٨٩٥م. وعين السلطان، محمَّد بن عبدالله بكشـويني قائدًا لقواته. وفي يناير ١٨٧٥م تمرد بكشـويني (وهو أصلًا من حضرموت)، وفي ١٨ يناير قامت سفينتان بريطانيتان بقصف القلعة بالصواريخ والقذائف وألحقت بها أضرار جسيمة.

وفي أول يوليو ١٩١٥م ـ وبعد أن أصبحت كينيا محمية بريطانية ـ تحوَّلت القلعة إلى سـجن لمنطقة السـاحل، وأُعيـد تخطيطها لتتلاءم مـع مهمتها الجديدة. وفي ١٤ أكتوبر ١٩٥٨م حولت قلعة يسوع إلى حديقة عامَّة، وفي ٢٩ نوفمبر١٩٦٠م حولت القلعة إلى متحف.

ومن الجدير بالذكر أن الرجل الذي عين فيما بعد قائدًا لقلعة يسوع، كان قد ولد بها، وهو محمَّد بن عبدالله بن مبارك بكشـويني. وكان والده عبدالله بكشـويني قد هاجر إليها من حضرموت وعين قائدًا للقلعة في عهد السـيِّد سـعيد. وبعد تعيينه أخلص في خدمة مصالح السـلطان فـي الفترة الأولى؛ ولكنه عاد فتمرد على السـلطان، مما أدى إلى عزله وأسـره وإرسـاله إلى زنجبار مع عائلته. ثم أبعد إلى المكلا. ومن هناك ذهب إلى مدغشقر، حيث تزوج من السلطانة بيسـيثا بييرا ـ فوم، التي أنجبت له سبعة أبناء. وفي عام ١٨٨٨م عاد إلى زنجبار حيث بقي هناك حتى وفاته عام ١٨٩٤م.

وهناك جزيرتان أخريان انضمَّتا إلى ممباسـة ضدَّ سيادة سلاطين عُمان، وهما لامو وباتي. وسوف نناقش أمر هاتين الجزيرتين على حدة.

❁ ❁ ❁



لامو وباتي

تقع جزيرتا لامو وباتي على الناحية الشـرقية من ساحل كينيا، ولطالما تقاتلت لامو، وهي الأكبر حجمًا، مع باتي، وهي الأقوى، وقد نشبت معارك عديدة بين الجزيرتين، وكان حاكم باتي يدعى «واناتامو» وقد قرَّر أن يشـنَّ هجومًا على لامو للحصول على الأسـلحة التي خلَّفهـا البرتغاليون، وكانت مدفونة في لامو، إلا أنه فشـل في تحقيق هدفـه؛ لأن قواربه قد غرقت قبل وصولها إلى شواطىء لامو.

وقد استولى حاكم باتي على لامو في السنوات الأولى من القرن التاسع عشـر؛ ولكنه لم يلق إلا سـخط شـعب لامو، وقد قرَّر أحد سلاطين باتي، ويُدعى «بوانا فومومادي» بناء قلعة على البحر في لامو لحماية البلاد؛ ولكنه مات قبل أن يكتمل الطابق الأول منها، ونشـأت بعد وفاته مشـكلة اختيار خليفته من بين أولاده الخمسين.

واسـتغل حاكم ممباسـة المزروعي الفرصة فجاء إلى لامو ليعمل على اختيار أحد أزواج بنات السـلطان الميت لكي يتولى الحكم، فانزعج شعب لامو من هـذا التدخُّل، وخافوا من التعاون مع شـعب باتـي، لمقاومة هذا التدخُّل، ورضوا، وهم كارهون، بتسليم جزيرتهم إلى المزروعي، مستهدفين إثارة شـعب باتي ليثور ضدَّ أصدقائه المزاريع، فتنشـب الحرب بين باتي

وممباسة، ونجح شعب لامو في ذلك، غير أن الشعب في باتي عقد اتفاقًا مع المزروعي، يقضي بأن يتظاهر المزروعي بأنه على خلاف مع باتي فيحاولون التقرُّب من شعب لامو، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يضعوا أيديهم على قلعتها، ويحضرون قواتهم إليها، ويدفعون أصدقاءهم في باتي إلى مهاجمة لامو.

وكانت فرصة ذهبية لرئيس قبائل المزاريع عندما دعاه سكان لامو لمساعدتهم، وفي عام ١٨١٣م توجَّه إلى لامو، واستطاع إقناع أهلها بضرورة استكمال بناء القلعة التي كان السلطان فومومادي قد بدأ في بنائها، استعدادًا للهجوم على باتي.

غير أن واحدًا من شخصيات لامو، من كبار السن، لاحظ أن شيئًا ما يجري بين رئيس المزاريع وبين مَلِك باتي، فوضع هذا الرجل خطة معينة يستكشف بها حقيقة ما يحدث، وبعث بأحد الصيادين، يحمل رسالة إلى رئيس المزاريع، زَعَم أنها من مَلِك باتي، يسأله فيها عن رأيه فيما يتعلَّق بالخطَّة التي اتفقوا عليها.

ووقع رئيس المزاريع في الفخ، وكتب الرد على الرسالة، وسلَّمه إلى الصياد، الذي عاد به في وقت متأخر من الليل.

وقد تضمَّن الرد معلومات عن القلعة، وأنه سوف يحدِّد موعد الهجوم بمجرد أن تستكمل القلعة بناءها.

وفي صباح اليوم التالي ذهب الرجل، وهو من كبار رجال لامو، إلى موقع البناء، وقدَّم تحيته إلى رئيس المزاريع، ثم بعد هنيهة أطلعه ـ في أدب ـ على الخطاب، فهاج المزروعي؛ لأن الخطاب أظهر له غباءه، وهرع إلى الشاطىء نحو قاربه، وفي أعقابه رجال لامو، يريدون قتله.

ولكن الرجل أقنعهم بضرورة المحافظة عليه وعدم إصابته بسوء طالما أنه ضيف عليهم، وعاد المزروعي إلى باتي، وأبلغ مَلِكها بما حدث.

فجرى بسرعة إعداد مجموعات حرب من جنود المزاريع ومن جميع قوّات باتي.

وصمّم شعب لامو على مواجهة الأعداء، ووقعت بين الفريقين معركة في شمال شرق لامو، وكان القتال بالغ العنف، وانتصر شعب لامو وتغلّب على أعدائه، وأما الذين هربوا فقد عادوا إلى باتي.

وقد كانت هزيمة المزاريع شؤمًا عليهم في أنحاء الساحل الشمالي، ففي خلال السنوات القليلة اللاحقة خسروا سيطرتهم على ممباسة، وقد كانت لهم معقلًا.

وبعد هزيمة المزاريع في شيلا جذبت لامو انتباه سلطان مسقط، الذي طالما ساءه تمرّد المزاريع في ممباسة.

فقام بإرسال قوة من جيشه وإرسال حاكم من قبله ليتولى حراسة قلعة لامو، وقد أتاح ذلك القرار الفرصة لتدفُّق التجار العرب الذين شعروا بأن الاستقرار السياسي سوف يعزّز من فرص الرخاء.

وقد جلب أولئك التجار معهم رؤوس أموالهم وخبراتهم التجارية فجعلوا من مدينة لامو لعبة للتجارة الدولية، وبدأت السفن العُمانية الكبيرة والفارسية تتدفَّق على الميناء في فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية؛ لتقوم بنقل السلع بأنواعها الأخرى، وخلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت لامو أهم مدن ساحل شرقي أفريقيا بعد ممباسة.

وفي أعقاب انتهاء القرن التاسع عشر، عندما أدَّى التسابق الأوروبي على أفريقيا، إلى تقسيم ممتلكات سلطان زنجبار، وإنشاء محمية بريطانية في شرقي أفريقيا؛ فقد ظهر عدد من المغامرين البريطانيين في المنطقة.

وكانت نتيجة ذلك تدهور لامو، وأصبح رخاؤها جزءًا من الماضي.

باتي:

باتي جزيرة أخرى في أرخبيل لامو استوطنها العرب العُمانيون، ويعتقد أن باتي قد أنشـأها المهاجرون من عُمان في القرن الثامن عشـر، ثم قامت عائلة النبهاني بتطويرها وقد جاءت من عُمان عام ١٢٠٤م، وقيل أن باتي كانت من الأقطـار القوية في القرن الرابع عشـر، وسـيطرت علـى معظم المدن الساحلية في شـرقي أفريقيا، غير أن آخِر الكشوف الأثرية، تشكِّك في صحة ما سـبق أن ورد ذكره عن هذه الجزيرة، وتشـير تلك الكشوف إلى أن مدينة باتي قد تأسَّست في القرن الرابع عشـر؛ لكنها لم تتطوَّر إلى دولة قوية تنعم بالثراء إلا في القرن السادس عشر.

وفي القرن الثامن عشـر غدت باتي دولةً قويةً ومتقدِّمـةً جدًّا في مجال الفنون الجميلة، وسمي هذا العصر بالعصر الذهبي لباتي.

ففي ذلك الوقت بالذات كان يمكن رؤية المنازل الأنيقة البناء، وأصناف المجوهرات والآلات الموسـيقية المصنوعة محليًّا التي كانت تُسمَّى «سيوا» والمطعَّمة بالفضة، ونسـخ القرآن المخطوطة باليد، ودواوين الشعر المؤثرة، ومعظمها من نظم شـاعرات، وقـد تدهورت حضارة باتي فـي أواخر القرن الثامن عشر نتيجة للنزاع المستمر مع الجُزر المجاورة لها.

سيو:

سـيو مدينة تقع وسـط جزيرة باتي، ولا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها؛ لعدم القيام بعمليات مسح أثري شاملة بها، ومع ذلك يعتقد أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث عشـر، وكانت تُعتبر أكبر مُـدن الجزيرة حوالي عام ١٦٠٠م.

وقد وقعت معركة عنيفة في سيو في القرن الرابع عشر، والمعلومة الوحيدة عن تلك المعركة ما ورد في مخطوط بعنوان: «المغامرات الحربيَّة للأمير حمد»، وهو ما لم يُنشر. وقد ذكر كريسي ماك كاستر وإيزموند مارتانز في كتابهما «البحث في الماضي»، «أنَّه في عام ١٨٤٣م قرَّر شيخ باتي الجديد، وبوانا ماتاكا، وشيخ سيو، الخروج عن سيادة السيِّد سعيد سلطان عُمان وزنجبار. فأرسل السيِّد سعيد جيشًا من أَلفي رجل من العرب ومن البلوش، وبعض المقاتلين من لامو، وأسندت قيادته إلى القائد المشهور السيِّد حمد بن أحمد البوسعيدي، المعروف بالأمير حمد، الذي كان من قَبل واليًا على بندر عباس (في فارس) عام ١٨٢٤م، وقد حقَّق ذلك القائد انتصارات في معاركه ضدَّ باتي وبيمبا وممباسة؛ ولكن النصر لم يحالفه في تلك المعركة. فقد نَزل في فازا في أوائل يناير ١٨٤٤م، وبينما كان يتحرَّك في اتجاه سيو في السادس من يناير، وقع رجاله في كمين وأُرغموا على التقهقر إلى فازا. وبعد ثلاثة أسابيع من الأعمال غير الحاسمة أبحر بعيدًا عن سيو وأمر بإقامة قلعة في سيو يحرسها مائة من الجنود البلوش العُمانيين.

وفي ديسمبر ١٨٤٤م تم حشد تسعمائة رجل في مسقط لمقاتلة سيو، وأحضروا إلى زنجبار، حيث تم تعزيزهم بمزيد من المقاتلين. ووصلوا مرة أخرى إلى فازا في ٤ يناير ١٨٤٥م. وعسكر السيِّد سعيد وقائد جيشه الأمير حمد خارج فازا في مكان يُسمَّى كيشوكاني. وفي ٦ يناير تقدَّم الأمير حمد نحو سيو، بينما صدر إليه أمر من السيِّد سعيد ببناء خمسة حصون دفاعية في الطريق إلى سيو، وبدلًا من أن يقوم ببنائها فإنه أنشأ حصنًا واحدًا في منتصف الطريق إلى سيو في مكوباني. ثم هاجم سيو وأرغم سكانها على التقهقر وراء أسوار المدينة؛ لكن سكان سيو تمكنوا من منع قوات السلطان من التقدّم، بقصفها من مدافعهم من خلال فجوات في السور.

وبدلًا من أن يواصل الأمير حمد القتال، فإنه قرَّر العودة بقليل من جنوده إلى مكوباني لإحضار تعزيزات جديدة، وكان ذلك خطأً فادحًا منه. فقد استطاع خمسمائة مقاتل التسلل من سيو، بعد أن سلكوا طريقًا أقصر إلى مكوباني.

وهناك اعترض أولئك المقاتلون الأمير حمد الذي لم يكن معه سوى ما يتراوح بين ١٨ و٢٢ رجلًا معظمهم عُزَّل من البنادق ولا يحملون إلا السيوف والخناجر. وحتى يمنع قائد قوات سيو حمادي نجوما وصول إمدادات للقائد العُماني، فإنه أمر رجاله بعدم استخدام الأسلحة النارية حتى لا تحدث صوتًا، وإنما يقتلون الأمير حمد بالرماح السَّامَّة.

وبعد إطلاق ١٨ رمحًا نحوه، استطاع أحد الرماة أن يطلق عليه رمحين متتابعين أصابه الثاني في ركبته. ثم اندفع رجلان بسيفيهما لقتل الأمير المصاب، لكن الأمير حمد استطاع تمزيقهما. وأخيرًا تلقى الأمير عددًا آخَر من الرماح السَّامَّة.

وعندما وجد السيِّد سعيد أن قائد قواته قد قُتل، أَنهى حصاره لسيو وانسحبت القوات وهي في حالة اضطراب، بحيث تمكن جنود العدو من ذبح الكثيرين منهم، بينما ألقى آخَرون بأنفسهم في المستنقعات القاتلة. وتم دفن جثمان الأمير حمد قرب فازا وقد توفي عدد كبير من جنوده أثناء بكائهم على قائدهم الكبير. وقد قام السيِّد سعيد وهو في حالة صدمة بلم شتات بقايا جيشه وأبحر عائدًا إلى زنجبار. ولم ينبس ببنت شفة إلى أن وصل إلى ماندا.

وبعد ذلك بوقت قصير سمع السيِّد سعيد أن شيخ ماتاكا قد توفي، ومن ثم قرَّر التفاوض بدلًا من القيام بمحاولة أخرى لأخذ سيو بالقوة. فقد اعتقد السيِّد سعيد، أنه ما دام شيخ ماتاكا ـ الذي كان خصمه الرئيس ـ قد مات،

فإن قيامه بشنِّ هجوم، سوف ينسف مكانته؛ لأنه لو كسب المعركة فلن يشيد به أحد، أما إذا خسرها فسوف يكون ذلك مشينًا له. وقبل وفاة السيِّد سعيد شدد في نُصح ابنه السيِّد ماجد بأن يتدبر كثيرًا ما حصل في سيو.

وقد تفاوض السيِّد سعيد مع شيخ سيو الجديد وعسكرت قواته من جديد في القلعة. وفي عام ١٨٦٣م أخرج الشيخ محمَّد ابن ماتاكا قوات السلطان من قلعة سيو، وتحالف مع أحمد سيمبا سلطان باتي. ورد السيِّد ماجد سلطان زنجبار على ذلك بإرسال أسطول مسلَّح لمهاجمة سيو. وقامت قوات السيِّد ماجد بإنزال قوات في باتي وفازا، وفرضت حصارًا على سيو استمر ستة شهور. وخلال هذه الفترة كان سكان باتي قد أكلوا كل ما لديهم من طعام. وبدأوا يعيشون على عصير جوز الهند والماء. وعندما وجد الشيخ محمَّد أنه لا يوجد أمل في النصر وأنه مهدد هو ورجاله بالفناء جوعًا طلب هدنة.

وقد وافق السيِّد ماجد على ذلك بشرط إعادة بناء قلعة سيو لتصبح مقرًّا للوالي. وقد قبل الشيخ محمَّد الشرط وأُعيد بناء القلعة.

وقد وقع خلاف جديد بين السيِّد ماجد وبين الشيخ محمَّد عندما قام الأخير بإنشاء حظيرة لبناء سفينة شراعية من طراز الداو في منطقة مواجهة لمقر الوالي واستاء الوالي جدًّا من ذلك التصرُّف، فما كان من الشيخ محمَّد إلا أنه أمر أتباعه بهدم القلعة. ورغم ما حدث فإن غالبية السكان طلبوا من الشيخ محمَّد تقديم اعتذار للسيِّد ماجد. ونزولًا على طلبهم بعث الشيخ محمد بالاعتذار وأُعيد بناء القلعة، غير أن السيِّد ماجد سرعان ما انتقم من الشيخ المذكور، فعندما توجه الشيخ محمَّد مع زعماء سيو إلى زنجبار لتقديم فروض الولاء للسلطان؛ أمر السيِّد ماجد باعتقاله والزَّج به في قلعة يسوع في ممباسة مع أوامر بوضع القيود في يديه وبألا يُفرج عنه إلا بأمر منه؛ ولكن

ذلك الأمر لم يصدر وأمضى الشيخ محمَّد بقية حياته في قلعة يسوع، وفرض السيِّد ماجد سلطان زنجبار سلطته الكاملة على سيو في النهاية.

وفي عام ١٨٢٣م وبعد عشر سنوات من السَّلام أصبحت سيو أكثر مدن الجزيرة سكانًا وثروةً، ونصب حاكم عربي في القلعة، وقد نجح في إحلال السَّلام بين مختلف الطوائف في الجزيرة.

وكان في المدينة ستة من التجار الهنود. واحد منهم من البهرة والخمسة الآخرون من الهندوس، وكانوا يمارسون النشاط التجاري، وكان مزارعو سيو يمارسون نمطًا غير معتاد في الزراعة؛ لكنه أسلوب معروف في مسقط. ويقوم على حفر الآبار حول مشارف المدينة لري المزارع، وجلب الجمال لاستخدامها كحيوانات عمل في استخراج المياه بدل الثيران التي لا تقوى على هذا العمل بكفاية.

وكان التبغ (تابو) أكثر المحاصيل الزراعية قيمةً ويصدَّر إلى معظم المُدُن الساحلية، وكذلك جوز الهند والبلح؛ وأنواع أخرى من الفواكه الاستوائية.

والتبغ في فترة السبعينيات ـ القرن التاسع عشر من أكثر المحصولات الزراعية إنتاجًا في المناطق الساحلية، وعندما تتعذر زراعته أثناء فترة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فإن سكان سيو يصدِّرون محصولهم إليها.

وكان البلح أهم محاصيل سيو، وتُعتبر زراعته مقصورة على سيو دون غيرها من مناطق الساحل لعدم توافر موارد كافية من مياه الرّي، والبلح هو أهم محاصيل سيو.

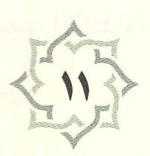
وقد ساعد نظام الرّي المتبع في سيو على احتفاظ جذور النخيل بالرطوبة الدائمة، وكانت هناك مئات من أشجار النخيل تنتج نوعًا عالي الجودة من البلح.

ولما ألغي الـــرق انهار الاقتصاد الزراعي، فانهار بذلك رخاء ســـيو، مما اضطر الناس إلى مغادرة المدينة للبحث عن عمل في ممباسة.

وكل ما بقي الآن من هذه المدينة في جزيرة باتي هو القلعة القديمة التي أنشأها الســـيِّد سعيد بن ســـلطان، ولا يبقى من مئات أشـــجار النخيل سوى واحدة أو اثنتين.

❁ ❁ ❁





حملة مكافحة الرِّق

تُعَدُّ مناقشة تجارة الرقيق من المسائل بالغة الحساسية، وإنَّه من الصعب إقناع أبنـاء الذين تأثَّروا فيها بشـكل مباشـر بتقبّل واقع تلـك الفترة التي ازدهرت فيها تجارة الرقيق؛ فالذين نشطت حملات مكافحة الرق من أجلهم لم يتمكّنوا من تفهّم أن الذين قاموا بهذه الحملات لم يكن هدفهم إنسـانيًا بحتًا، بل أن الدوافع السياسية هي التي كانت تحرِّكهم.

ولقد نجحت هذه الدوافـع فحقّقت للأوروبيين أهدافهم السياسـية في شرقي أفريقيا، وزرعت الكراهية العنصرية والدِّينية في عقول الناس إلى الحد الذي يجعل شخصًا يكره شـخصًا آخَر لمجرد أن جلده يحمل هذا اللون أو ذلك، أو أنه يعتنق هذا الدِّين أو ذاك.

وفي الحقيقة، فإن تجارة الرق كانت عملًا بشعًا، شارك فيها غالبية الذين زاروا أفريقيا ـ إن لم يكونوا كلهم ـ وتورط فيها كثير من الناس، بما في ذلك الإفريقيون أنفسهم، بدءًا من إمبراطورية الزنج ونهاية بوصول العرب، وحتى بوصول الدول الأوروبية إلى شرقي أفريقيا، ولقد كان هناك دافع مشترك في تلك الأيام، وهو الحصول على قوة عاملة رخيصة، ومع ذلك فقد كانت تلك التجارة سـبة في جبين الحضارة نفسـها، أكثر مما كانت شـيئًا مشينًا للذين زاولوها منتهكين المبادئ الإنسانية.

ورغم أن البرتغاليين والفرنسيين والأسبان قد شاركوا في تجارة الرقيق، فإن العرب هم الذين انصبت عليهم الانتقادات. وقد ظهر العرب على مسرح هذه التجارة في القرن التاسع عشر.

وعندما اتخذت بريطانيا خطواتها المبدئية ضدَّ تجارة الرقيق في شرقي أفريقيا، فإن ذلك حدث في عهد السيِّد سعيد بن سلطان. ففي عام ١٨٢٢م، وقَّع السيِّد سعيد اتفاقية مع بريطانيا تعهَّد فيها بتحريم بيع الرقيق إلى أي دولة مسيحية.

كما نصَّت الاتفاقية على وجوب إطلاق سراح جميع العبيد الذين يملكهم الرعايا البريطانيون المقيمون في المناطق الخاضعة للسيِّد سعيد سلطان زنجبار، وقد حاول الرعايا البريطانيون والهنود أصحاب الرقيق أن يلتمسوا من السلطان إعفاءهم من هذا الشرط؛ لكنهم لم يفلحوا في مسعاهم. وقد نتج عن إلغاء هذا الوضع السائد انهيار الاقتصاد الزراعي. وحدث ما كان متوقعًا، حيث تحول العبيد الذين تحرَّروا إلى السرقة لملء بطنهم عندما عجزوا عن العثور على ما يسدُّ رمقهم، وقد كان المفهوم في ذلك الوقت أن قانون تحريم الرقيق إنما يقتصر على رعايا بريطانيا المقيمين في ممتلكات السيِّد سعيد وحدهم، وعندما رفض رعايا السيِّد سعيد تطبيق هذه الإجراءات على أنفسهم. فقد كان على بريطانيا أن تتدخَّل لتفرض أوامرها على رعاياه.

وإن الوضع بالنسبة للرقيق في البلاد الإسلامية كان مختلفًا عنه في أمريكا الشمالية، ففي الدول الإسلامية كان للعبيد ساعات عمل محدودة، وكان يسمح لهم بالعمل لحسابهم الخاص، يومين على الأقل كل أسبوع، بالإضافة إلى منحهم فترات راحة.

وكان هناك تنافس بين المسلمين في مَنح الحرية لعبيدهم، وكان مما يفخر به العبد أن يعلن أنه مملوك لشخص مميز.

ولكي نفهم بشـاعة الرق، ينبغـي معرفة الفرق بين تجـارة العبيد وبين امتلاكهم، فالأولى تتنافى تمامًا مع الأحاسيس الإنسانية. ولقد كان من عادة تجار الرقيق أن يتجولوا في غابات أفريقيا لاصطياد العبيد، وكانـوا يقومـون ـ بمسـاعدة بعض الإفريقيين ـ بنزع الضحايا من أكواخهم وإرسـالهم إلى السـاحل تحت أقصى الظروف. وكثيرون منهم كانـوا يموتون قبل وصولهم إلى الجهة المتجهين إليها؛ بسبب الجوع والعطش والتعذيب.

وقد يتسـاءل المرء! ألـم يكن تجار العبيد أنفسـهم يقاسـون من نفس المشـكلات، وهم يقودون قوافل العبيد من الداخل إلى الشـواطئ؟ إننا إذا أخذنا فـي اعتبارنا المطمح الرئيس لتاجر الرق في تحقيق أكبر مكسـب من بضاعته، فإننا نجد من المنطقي أن يكون مهتمًا بالوصول بعبيده إلى السوق أحياء وفي صحة جيدة، حتـى يحصل مقابلهم على أفضل سـعر. فلقد كان الرقيق رأس مال التاجر، وإذا عذَّبه حتى الموت فإنه يخسر رأس ماله.

وعندما بدأت حملة مكافحة الرقيق فإنها لم تبدأ كمسألة إنسانية؛ ولكنها بدأت بدوافع سياسـية. ولقد حرص الكتَّاب الذين كتبوا عـن تجارة العبيد وقمعها؛ على أن يغرسـوا بذور الكراهية في عقول قرائهـم، وبذلك أفرزت تلك البـذور حصادها المقيت، وظلَّـت تلك الكراهية سـائدة منذ أن كانت تجارة الرق في أوج ازدهارها حتى يومنا هذا، حيث أصبحت مجرد قصة من قصص الماضي.

وفي مجال المقارنة، فإن التجار الأوروبيين كانوا أكثر تجرّدًا من الإنسانية، من نظرائهم العرب. فلم يكن العرب يبيعون عبيدهم في الأسـواق مع أثاثهم عندما كانوا يغادرون مدينة ما إلى أخرى مثلما كان يفعل الأوروبيون.

وقد كتب الرحَّالة الأوروبي ريتشـارد في عام ١٨٨٠م بعد زيارته لزنجبار

يقول: بأن العبيد هنا لا يعانون من الجوع أو التعذيب أو الحرمان؛ لأنه لو بلغت السلطان أنباء عن سوء معاملة السادة لعبيدهم فإنه يعطي لهؤلاء العبيد حريتهم ويحميهم من انتقام سادتهم السابقين؛ ومضى ريتشارد يشرح أوضاع العبيد كما شاهدها، مؤكِّدًا بأنها أفضل حالًا من ألوف العمَّال في بلاده.

ويرجع إلى السيِّد سعيد فضل كبير في مساعدة بريطانيا مساعدة كبيرة في محاولاتها تحريم تجارة الرقيق، رغم أن المعاهدات التي وقَّعها معها لم تكن موضع ترحيب من شعبه، وفضلًا عن ذلك فإنه كان يشكل خسارة اقتصادية ومالية طائلة كانت تعود عليه من الرسوم المقرَّرة في ممتلكاته على العبيد المزارعين، وقد كانت هذه الرسوم مصدرًا رئيسًا للدخل.

وبعد وفاة السيِّد سعيد استقبل ابنه السيِّد برغش كثيرًا من المبعوثين البريطانيين الذين جاءوا كدعاة تشديد للحملة ضدَّ الرق، ومن بين هؤلاء السير بارتل فرير الذي نجح بعد عدة محاولات في شراء عدد من العبيد، ومنحهم الحرية، وبعد ذلك حصل على قطعة أرض في ممباسة، وأقام عليها مستعمرة يعمل فيها العبيد الذين حُرِّروا من ساداتهم، وسمى هذا المكان باسم (فرير تاون) أي: مدينة فرير، وما زال يحمل نفس الاسم حتى اليوم.

وكان الدكتور كيرك يمثل فرير، ثم أصبح بعد ذلك يحمل لقب سير، وهو السير جود كيرك القنصل البريطاني في زنجبار، وقد وصل به الأمر إلى أنه هدد السيِّد برغش باستخدام القوة إذا لم يوافق على توقيع معاهدة أشد صرامة، وقد وقَّع السيِّد برغش على تلك المعاهدة عام ١٨٧٣م. وأغلق السلطان سوق العبيد في زنجبار.

وفي سبتمبر ١٨٧٩م وقَّع السيِّد خليفة - الذي خلف السيِّد برغش - اتفاقًا مع بريطانيا، يقضي بأن كل الذين يدخلون أراضي السلطان ابتداء من أول

نوفمبر من ذلك العام يعتبرون أحرارًا، كما أن الأطفال الذين يولدون بعد أول يناير ١٨٩٠م، يعتبرون أحرارًا أيضًا.

واتخذت الخطوة النهائية نحو إلغاء الرق في زنجبار وبيمبا عام ١٨٩٧م ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن هناك اندفاع من جانب العبيد لنيل حريتهم، ففي أواخر يونيو من ذلك العام أعلن عن حصول ١٢٠ شخصًا فقط على حريتهم في زنجبار وبيمبا. فقد كان كثير من العبيد سعداء وراضون عن أوضاعهم لدى سادتهم، وهنا يتضح الفرق بين الاتجار في الرقيق وبين امتلاك الرقيق، فلقد كان الجانب البشع في الرق مرتبط بعملية نقل العبيد من الداخل إلى الشاطىء، وعبر الرحلة إلى زنجبار؛ لكن حسن معاملة الرقيق لم تكن تبدأ إلا بعد وصولهم إلى الجهة النهائية. وكثيرون من العرب كانوا يتَّصفون بالرحمة؛ ولذلك عادة ما كان العبد في زنجبار أكثر أمانًا وراحة مما كان في قريته بالداخل. وكان أصحاب الرقيق يهبونهم بعض الأراضي لاستصلاحها وزراعتها لأنفسهم، أما الذين عملوا كخدم في البيوت فقد كانوا مرتبطين بسادتهم، وكانوا يرفضون منحهم حريتهم. وتدريجيًّا بدأ العبيد يطالبون بحريتهم، إلى أن اختفى الرق تمامًا.

❀ ❀ ❀



الإسلام والمسيحية في شرقي أفريقيا

رأينا في الفصل السابق كيف أقام العرب والفرس مستوطنات في شرقي أفريقيا، من مقديشيو شمالًا إلى كيلوا في الجنوب. ومن الجدير بالذِّكر أن أولئك المهاجرين لم يذهبوا إلى شرقي أفريقيا كمبشرين بالإسلام هدفهم هو تحويل الإفريقيين إلى الدين الإسلامي. فقد كان الدافع هو العثور على ملجأ آمن ـ من ناحية ـ والتجارة من ناحية أخرى. وكان اعتناق السكان الوطنيين للدين الإسلامي نتيجة للعلاقة الوثيقة التي نشأت بينهم وبين ضيوفهم. كذلك انتشر الإسلام في أفريقيا بحكم الزواج والامتزاج بين الطرفين، الذي بدأ منذ قرون واستمر في القرن الثامن عشر مع الاستيطان الدائم للمسلمين القادمين من الجزيرة العربية وشيراز.

ويمكن القول أن دخول الإسلام قد مهدت له تلك الروابط الأخوية بين الشيرازيين والعرب من ناحية، وبين سكان شرقي أفريقيا من ناحية أخرى. وهي روابط اجتماعية وثقافية قامت منذ وقت طويل.

ومن جانب آخَر فإن المسيحية دخلت شرقي أفريقيا من خلال فتح هذه المناطق على يد الأوروبيين، ويرتبط نشاط البعثات التبشيرية المسيحية بمختلف صورها بالقصة الكاملة لفتح أفريقيا الاستوائية وتطورها خلال القرن التاسع عشر، كما أن جزءًا كبيرًا من الكشوف الأولى للمناطق الداخلية

من أفريقيا قد تم خلال القرن التاسـع عشر على يد مبشرين مسيحيين، وإلى جهودهم يعود الفضل في وقف تجارة الرقيق البشعة.

وبدون الحديث عن أعمال المسيحيين يصبح الحديث عن تاريخ ساحل شـرقي أفريقيا غير كامل. وقد سهل سـلطان زنجبار ـ رغم أنه مسلم ـ عمل تلك البعثات المسيحية، وهذه هي الديمقراطية الكاملة في الإسلام، فالإسلام لا يتدخل في شـؤون أية ديانـة أخرى، بـل العكس فهو يحتـرم الديانات الأخـرى: والقـرآن يقـول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. ومن هـذا المنطلق عرض السلطان كافة المساعدات والتسهيلات للبعثات المسيحية عندما اتصلت به، وبصرف النظر عما إذا كان مصيبًا في ذلك أم لا، فإنه قد تصرف بحسـن نية وبالتزام كامل بمبادئ الإسلام.

وبعثات التبشير الرئيسـة التي عُرفت بنشـاطها الزائد في شرقي أفريقيا هي:

(١) **جمعية التبشير الكنسـية**: وهي جمعية توفد رجالًا إلى هذه المناطق، وتأسسـت عام ١٧٩٩م للعمل في «أفريقيا والشـرق»، وفي عام ١٨٤٠م أرسل الدكتور كرامبف إلى الحبشـة في بعثـة تقصّي الحقائـق ولمعرفة ما إذا من الممكن التبشير بالمسـيحية في هذه البلاد، وقد أقنعته مشاهداته بعدم نجاح التبشير هناك في ذلك الحين.

وفي عام ١٨٤٤م غادر الحبشـة وذهب إلى زنجبـار، حيث أكرم القنصل البريطاني همرتون وفادته، وقدَّمه للسيِّد سـعيد، وقد شرح الدكتور كرامبف للسلطان، أنه يرغب في الاسـتيطان في ممباسة من أجل تحويل السكان إلى المسيحية، فسمح له السيِّد سعيد بالقيام بذلك، وسلمه رسالة توصية للحاكم العربي للساحل.

وأبحر الدكتور كرامبف إلى ممباسة في مايو سنة ١٨٤٤م، وبدأ عمله بين قبائل نييكا، ولم تكن البيئة المحلية مهيأة له ولعائلته تمامًا، فخلال بضعة شهور من إقامته هناك فقد زوجته وطفله، بينما أُصيب هو بمرض خطير، ولما ماتت زوجته حضر حاكم ممباسة وغيره من المسلمين السواحليين جنازتها إكرامًا له.

ولم تثبط تلك الأحداث من همته، واستمر في عمله. ولحق به عام ١٨٤٦م صديقه القس جون ريبمان، وأقاما مقرًا للبعثة في قرية راباي، وما زالت كنيسة راباي تستخدم حتى اليوم.

٢ ـ البعثة الجامعية لوسط أفريقيا: وقد تأسَّست هذه البعثة عام ١٨٥٦م نتيجة لنداء وجهه دكتور ليفنجستون إلى جامعتي أوكسفورد وكامبريدج، وفي البداية أوصت البعثة بالبدء في عمل نشاط عام ١٨٦١م في إقليم نهر شيري، بقيادة الأسقف ماكنزي، ولم يكن اختيار المكان مناسبًا؛ بسبب الطبيعة القاسية هناك، حيث مات الأسقف ماكنزي ومعظم مساعديه في العام الأول من بدء نشاطهم، وقرّر خلفه الأسقف توزر الذي وصل إلى نهر شيري عام ١٨٦٣م، وقف العمل هناك لفترة، ونقل المقر إلى زنجبار بعد أن تأكد من أن مركز زنجبار المتوسط على الساحل الشرقي يمكن أن يجعل منها نقطة للإنطلاق لمزيد من العمل في الداخل.

ووصل الأسقف توزر بصحبة الدكتور ستير إلى زنجبار في أغسطس ١٨٦٤م، وبضعة أيام قضياها ضيفين على القنصل البريطاني، اتفق مع السلطان السيِّد ماجد على تزويد البعثة بمبنى كبير مواجه للبحر في شانجاني في وسط المدينة.

وزوّد السلطان الأسقف توزر بخمسة من الصبية الذين كانوا عبيدًا

وحُرِّروا؛ ليساعدوه في عمله، وبهؤلاء الصبية وغيرهم ممن انضمُّوا إليه بعد ذلك بدأ توزر عمله بتعليمهم، بحيث أصبحوا فيما بعد مدرسين وقسسًا.

وفي عام ١٨٦٥م اشترى الأسقف توزر مقاطعة في كيونجاني، على مسافة لا تبعد كثيرًا عن مدينة زنجبار، وبعد ذلك بعدَّة سنوات اشترى قطعة أخرى من الأرض في مبويني، على مسـافة أربعة أميال إلى الجنـوب من المدينة واسـتخدمها لإقامة الوافدين الجُدد إلى البعثة، ولم يمض وقت طويل حتى أُنشـئت قرية في هذا الموقع للعبيـد الذين تم تحريرهم، ومـن هذا المكان انتشرت المسيحية إلى الداخل حتى وسط أفريقيا.

٣ ـ **بعثة الروح**: وتتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وقد أَسَّسها دكتور أماند مانيوينت، وأسقف سانت دينيس، الذي أرسـل نائبه العام إلى زنجبار عام ١٨٦٠م، وعند وصوله إلى زنجبار زار هو ومرافقوه السـلطان السيِّد ماجد وأبلغوه أنهم سـيقومون بأعمال التمريض للمواطنين الفقراء وتعليمهم، وقد لقوا من السـيِّد ماجد ترحيبًا ودِّيًـا، وأعرب لهم عن أمله فـي أن يكون في عملهم بركة لشعبه.

وقد أنشأت البعثات مستشـفيين، واحدة للبحارة الأوروبيين، والأخرى للإفريقيين ومدرسـة أولية، ومدرسـة صناعية، ومن هنا انتشـر عملهم إلى الداخل.

٤ ـ **بعثة الأصدقاء الصناعية ـ بيمبـا**: وكان اهتمامها منصبًّا عن مكافحة الرق وتجـارة الرق. وسُـمِّيت بهذا الاسـم؛ لأنها آمنت بـأن أفضل طريق للتخلص من الرق هو تحويـل العبيد إلى مواطنين نافعيـن يزاولون أعمالًا مفيـدة، وكان رائد هذه البعثة هـو تيودور بيرت الذي وصـل إلى بيمبا عام ١٨٩٧م، قبل صدور مرسوم إلغاء الوضع القانوني للرق ببضعة شهور.

ومن الجدير بالذكر أن المســاعدة التي قدَّمها ســلطان زنجبار للبعثات المســيحية كانت كبيرة للغاية، ومــع ذلك فقد أعطيت للإســلام في مرحلة لاحقة صورة تظهره بمظهر أعدى أعداء المصالح الأوروبية في أفريقيا. حتى أنهم كانوا يربطون العربي بالرق وكل أنواع الاستغلال.

❀ ❀ ❀



زنجبار في فترة الحماية البريطانية

بدأت نقطة التحول في تاريخ زنجبار في ٤ نوفمبر ١٨٩٠م عندما وضعت هي وبيمبا تحت الحماية البريطانية. وكان ذلك يعني ببساطة وضع حكومتها وإدارتها مستقبلًا في أيدي مسؤولين بريطانيين، رغم أن الجزيرتين ظلَّتا تحت حكم السلطان؛ لكن السلطان لم يعد مستقلًّا، أو يتمتع بسلطات واسعة، وإنما هو مجرد حاكم اسمي للجزيرتين. ومن ثم سقطت تمامًا في أيدي آخَرين إمبراطورية شرقي أفريقيا المتسعة والطموحة التي أراد السيِّد سعيد بن سلطان بناءها. وكان ذلك نتيجة للتسابق الأوروبي على أفريقيا، وقد اتهم بعض الكتَّاب خلفاء السيِّد سعيد بالعجز عن إقامة حكم فعَّال وقوي في المناطق على الساحل الشرقي لأفريقيا، وكان ذلك سببًا في سقوط إمبراطوريتهم في أيدي الغير.

وفي عام ١٩١٣م وبعد عامين من تولي السيِّد خليفة بن حارب، ألغي مكتب الوزير الأول للسلطان والقنصل العام، وأقيم مكتبان جديدان مكانهما للمقيم البريطانيين، والسكرتير الأول. وفي نفس الوقت أنشىء مجلس محمية زنجبار برئاسة السيِّد خليفة، والمقيم البريطاني نائبًا للرئيس، وعضوية ثلاثة أعضاء رسميين، وأربعة غير رسميين لتمثيل مختلف السكان.

وفي ٥ سبتمبر ١٩٢٥م ألغي منصب المندوب السامي في زنجبار الذي

يشغله حاكم محمية شرقي أفريقيا، وأصبح المقيم البريطاني مسؤولًا مسؤولية مباشرة، عن المكتب. وحلّت محلّ مجلس المحمية الذي أُنشىء عام ١٩١٤م، مجالس تنفيذية وتشـريعية، بدأت عملها في أول مارس ١٩٢٦م، وكان يرأس المجلس التنفيذي، المقيم البريطاني، مع ثلاثة أعضاء مسـؤولين سـابقين، وسـتة أعضاء من غير المسـؤولين، وكانت هذه أول مرة يشارك فيها شعب زنجبار حكومته في إدارة شـؤونه. وفـي عام ١٩٤٦م زاد عـدد الأعضاء غير الرسميين واحدًا، وفي عام ١٩٤٧م زاد واحدًا آخَر، لتمثيل الإفريقيين.

وفي عـام ١٩٥٦م جرى توسـيع المجلـس، وارتفع عـدد الأعضاء غير الرسـميين من ٨ إلى ١٢، ومنهم أربعة عرب، وأربعة إفريقيون وثلاثة هنود، وأوروبي واحد.

وكان هناك في الوقت نفسـه تمثيـل عنصري في المجلس التشـريعي؛ ولكن ذلك توقف عندما صدر في عام ١٩٥٦م المرسوم الخاص بالجنسية في زنجبار. وأصبح الأعضـاء غير الرسـميين «أعضاء ممثلين». كمـا عُيِّن في الجانب الرسـمي لأول مرة ثلاثة أعضاء من موظفي الحكومة ممن كانوا من رعايا سمو السلطان؛ وعيّن في المجلس التنفيذي ثلاثة أعضاء ممثلين، وعُهد إلى كل منهم بمسـؤولية إحدى الإدارات الهامَّة في الحكومة، وبذلك أصبح ممثلو الشعب يشاركون لأول مرة في إدارة شؤون بلادهم.

كذلك أُنشـىء مجلس خـاص لتقديم المشـورة للسـلطان، فيما يتعلّق بممارسة سلطاته. ويتكوّن من المقيم البريطاني، والسكرتير الأول، والمدعي العام وما لا يزيد عن ثلاثة أعضاء آخَرين يعيّنهم السلطان.

وفي مايو ١٩٥٧م تقـرّر بناء على توصيات مسـتر كوتس (السـير والتر كوتس بعد ذلك) - أن يكون شغل مقاعد سـتة من الأعضاء الممثلين الاثني

عشر بالانتخاب، وستة بالتعيين من جانب السلطان طبقًا لمشورة المقيم البريطاني، واستنادًا إلى طلبات مقدَّمة من أفراد، بحيث يكون كل منهم حاصلًا على تأييد مائة صوت على الأقل.

وجرى زيادة المقاعد الستّة التي يشغلها أشخاص منتخبون إلى ثمانية في مايو ١٩٥٩م. ومع ذلك فإن هذا التغيير لم يوضع موضع التنفيذ قبل موعد الانتخابات التالية، وفي أغسطس من نفس العام سنَّت الحكومة قانونًا يعطي المرأة هذا الامتياز.

ونتيجة لتوصيات سير هيلاري بلود المفوض الدستوري في نوفمبر ١٩٦٠م عدل دستور المجلس التشريعي، بحيث أصبح يضمُّ اثني وعشرين عضوًا منتخبًا وخمسة أعضاء يعيِّنهم السلطان بناءً على مشورة المقيم البريطاني، وكان ذلك تغييرًا هامًّا في التاريخ الدستوري لزنجبار، فقد أصبح يضمُّ لأول مرة أغلبية من ممثلي الشعب في المجلس التشريعي ـ يتمتعون بمسؤوليات وزارية. ولم يعد المقيم البريطاني هو رئيس المجلس، وحلَّ محلّه رئيس مُنتخَب من بين الأعضاء.

وأُجريت ثاني انتخابات عامّة في زنجبار في يناير ١٩٦١م لشغل جميع المقاعد الاثني والعشرين. ووصل هذا الإجراء إلى طريق مسدود، وتقرر تشكيل حكومة مؤقتة تضمُّ ممثلين عن كل حزب من الأحزاب السياسية الثلاثة، وهي: الحزب الوطني الزنجباري، والحزب الأفروشيرازي، وحزب شعبي زنجبار وبيمبا، مع وجود سكرتير مدني يزاول مهام رئيس الوزراء، ومن أجل تفادي مواجهة تغيير آخَر، زيد عدد الممثلين المنتخبين من ٢٢ عضوًا إلى ٢٣ لثالث انتخابات عامّة في يونيو ١٩٦١م التي أسفرت عن تشكيل حكومة ائتلافية، من حزبين: الحزب الوطني لزنجبار، وحزب شعبي زنجبار وبيمبا، وفي نوفمبر ١٩٦٢م أدخل نظام الاقتراع العام لجميع الذين بلغوا سن ٢١ عامًا فما فوق.

وفي مايو ١٩٦٣م صدر المرسوم الدستوري ليحلَّ محلَّ مرسوم المجالس، وحلَّ محلَّ المجلس التنفيذي، مجلس وزراء يضـمُّ رئيس وزراء وعددًا من الوزراء لا يزيد عن سـبعة. وأُنشـئت جمعيــة وطنية لتحلَّ محــلَّ المجلس التشريعي، وجميع أعضائها الواحد والثلاثين منتخبون.

وفي ٢٤ يونيو ١٩٦٣م ـ مُنِحت زنجبار حكمًا ذاتيًّا داخليًّا ودستورًا جديدًا بدأ سريان مفعوله في نفس اليوم. وأعقب ذلك إجراء رابع انتخابات عامة في ٨ يوليو ١٩٦٣م، ونتــج عنها تشـكيل حكومة من تحالف الحــزب الوطني الزنجباري وحزب شعبي زنجبار وبيمبا.

ونتيجة للمناقشــات التي جَرَت بين ممثلي الحكومــة والمعارضة وبين الحكومة البريطانيــة، أعلن يوم ١٠ ديســمبر ١٩٦٣م موعدًا للاســتقلال التام لزنجبار؛ وبذلك انتهت الحمايــة البريطانية التي اســتمرت ٧٣ عامًا. وتغيّر لقب السلطان بعد العاشر من ديسمبر ١٩٦٣م من سموه إلى جلالته.

ولم يدم هذا الاستقلال أكثر من شــهر، ففي ١١ يناير ١٩٦٤م صدرت من داخل أفريقيا إلــى زنجبار عملية انقلاب دموي أطاحت بالحكومة الشــرعية المنتخبة، وقتل آلاف الأبرياء، منهم كبار في الســن ونساء وأطفال، غالبيتهم من العرب.

❁ ❁ ❁



الثورة في زنجبار، ولماذا؟

تكاد جميع الثورات التي وقعت في أجـزاء مختلفة من العالَم أن تكون نتيجة فشـل من جانب رئيس الدولـة وحكومته في أن يجعل شـعبه يحقِّق الاحتياجات الأساسية للحياة.

وبشـكل أو بآخَـر فإن مثل هـذه الدولة ربمـا لا تَملك مـن المصادر والتسهيلات ما يمكِّنها من تلبية حاجات المواطنين، وإن القليل الذي تملكه يُستخدم لمنفعة رئيس الدولة وبعض من رجاله المقرَّبين، ومثل هذه الظروف كفيلة بإشعال ثورة لها ما يبرِّرها، وإن ما يبرِّر مثل هذا النوع من الثورات أَن جماهير الشـعب تتعرَّض للمـوت جوعًا، بينمـا رئيس الدولة ومسـاعدوه يتجاهلون حاجات الشعب ومشكلاته ولا يهتمون إلا بأنفسهم وبمصالحهم.

وهناك أنواع من الثورات الأيديولوجية، حيث لا تحظى الحكومة القائمة برضاء قطاع معيَّن من الناس.

فَيَعمد هؤلاء الساخطون إلى تنظيم أَنفسهم، ويسـعون إلى الحصول على تأييد إحدى الدول الأجنبية التي تلتقي وجهة نظرها مع نوعية التغيير المطلوب.

وفي أغلب الأحـوال يقوم بهذا النـوع من الثورات عناصر تسـعى إلى السلطة من أجل السـلطة، لا من أجل مصلحة الشعب ورفاهيته وتقدّمه. وما

إن تصل تلك العناصر إلى هدفها حتى تنقلب على مواطنيها وتتحوَّل إلى أداة لتحقيق سياسة الدولة الأجنبية التي كانت تساعدها.

ومع ذلك فإن الثورة في زنجبار حدثت لأسباب مختلفة، كما قد ذكرت أسباب مختلفة في تبريرها، وأغلب هذه المبررات أن السكان العرب كانوا يستغلّون الإفريقيين، ومن هنا اكتسبت الثورة طابعًا عنصريًا. وأن الثروة الوحيدة التي كان يملكها العرب هي الأرض، لكن العرب لم يكونوا الفريق الوحيد الذي يمتلك الأراضي، فقد كان هناك الهنود والإفريقيون أيضًا. والأرض نفسها لم تكن تُعتبر في نظر أصحابها شيئًا هامًّا، غير أن أهميتها تكمن في مزارع القرنفل وجوز الهند التي كانت تضمّها، وعلى الرغم من وجود محاصيل أخرى كالمانجو والبرتقال غير أن تلك المحاصيل لم تكن تُعتبر ثروة.

وبالتالي فإن من كان يرغب في زراعة محصول يوفّر له الغذاء، فإنه يستطيع أن يفعل ذلك في أرض أي شخص - وإن كان ذلك يبدو غريبًا - بدون إذن أو حتى عِلم صاحب الأرض. وكان المزارعون في زنجبار يعيشون فوق أراض مملوكة لغيرهم، ويستغلونها لأنفسهم، وإذا أراد صاحب الأرض أن يحصل على شيء من المحصول، فإنه يدفع فيه الثمن السائد في السوق. وإذا رفض فإن المزارع يستطيع أن يذهب بمحصوله إلى السوق؛ لكن ثوار زنجبار لم يعدموا مبررات يخدعون بها العالَم، ويغطون بها على الحقائق السَّائدة في زنجبار.

وكان الحلم الذي روَّجوا له هو أنه بمجرد الإطاحة بالعرب ومصادرة أراضيهم، وإعادة توزيعها على الإفريقيين، فإن كل فرد في البلاد سيصبح ثريًّا. وعندما أخذ يتردَّد ذلك في أسماع الإفريقيين، تصوَّر كل واحد منهم أنه سيتحوَّل إلى شخص ثري له مكانته ومركزه في المجتمع.

ومع ذلك فإن الإفريقيين لم يكونوا غافلين عن أن مثل ذلك العمل سوف يعني الانتحار الاقتصادي للبلاد. فليس في النُّظم الشيوعية ولا الرأسمالية ما ينص علـى أن تفتيت الأرض إلـى ملكيات صغيرة، يمكـن أن يحقِّق فائدة اقتصادية.

ولقد جُـزِّأت الأرض في زنجبار إلى ملكيات صغيرة، مسـاحة كل منها أكر واحد (فدان)، ووزعت على الورثة غير الشـرعيين للعرب الذين قُتِلوا أو سُجِنوا، وجدير بالذكر أن الارض الزراعية في زنجبار مليئة بأشجار القرنفل وجوز الهند، وهي أشجار تغل حاصلاتها موسميًا، ومن أجل الاعتماد عليها كملكية اقتصادية، يَلزم أن يُنفِق عليها الفرد أموالًا طائلة للمحافظة على نظافة الأرض المزروعة، وزرع أشجار أخرى بدل الأشجار التي تموت. وقد أغفلت السلطات هذه الحقيقة.

ونتيجة لذلك فإن المُـلَّاك الجُدد قـد أدركوا، أنه لكـي تؤتي الأرض بمحصول وفير فلا بد عليهم من الإنفاق عليها، وحيث إنهم غير قادرين على الإنفـاق فقد اضطروا إلى تـرك مزارعهم، وآثروا الهروب إلـى داخل البلاد للعمل فيها، عمالًا بالأجر.

وبالإضافة إلـى تدهور جودة المحصول؛ بسـبب الآفـات الزراعية فإن الحكومة أرغمـت المزارعين على ألا يبيعـوا محصول القرنفـل إلا إليها، وبأسـعار تحدّدها وزارة الخارجية، وكان السعر الذي تشـتري به الحكومة الرطل من القرنفل هو ١٥٠ شـلنًا، وتبيعه للولايات المتحدة الأمريكية بـ١٧٠٠ شلنًا.

ولم يكن سـعر الشـراء من المزارع هو دخله الصافي، فقد كان عليه أن يشـتري حصيرًا لتجفيف القرنفـل، وبناء أكواخ مؤقتة في موسـم الحصاد،

وقضاء وقت ينشر فيه القرنفل على الحصير لتجفيفه في الصباح، ثم جمعه في المساء، أو في وقت المطر الذي ينزل في أي وقت.

وإذا أسعد الحظ المزارع فإنه لا يكسب من زراعته ما كان يحصل عليه وهو عامل أجير، إذ كان أجر العامل هو ١٥٠ شلنًا كل ثلاثة أيام، وكان عمل الأجير عبارة عن مجيئه في الصباح فيصعد على أشجار القرنفل لجنيها، ثم يأتي في المساء ليفصل القرنفل من زهره، ويستلم أجره، أما باقي الأعمال فيقوم بها صاحب الأرض؛ ولهذا فقد أصاب الوضع الجديد المُلاَّك الجُدد بخيبة أمل. وتبخَّرت فيه كل أحلامهم، وأصبحت البلاد فقيرة في القوى البشرية نتيجة هجرة المثقفين منها، العرب والإفريقيين على السواء، ولجأ ما لا يقل عن مائة ألف منهم إلى دار السلام، وذهب عشرون ألفًا على الأقل، ممن هم من أصل عربي إلى وطنهم الأصلي، وطن آبائهم وأجدادهم.

ومن الغريب أن خطة الثورة - إذا استخدمنا هذا التعبير - لم تُرسم بيد الإفريقيين وحدهم وإنما بمشاركة أبناء بعض ملَّاك الأرض العرب كذلك. وهؤلاء كانوا مجموعة من الشباب بقيادة عبدالرَّحمٰن محمَّد الذي يُعرف باسم «بابو».

وكان بابو في البداية سكرتيرًا عامًّا للحزب الوطني الزنجباري ثم اتصل بالصين عندما أوفده حزبه للحصول على تأييد بكين، وقد عيّن وكيلًا عن وكالة أنباء الصين الجديدة (صينموا)، وعمل من خلال نشرته المحلية التي أسماها «زانيوز»، على نشر الأفكار الشيوعية في زنجبار وشكَّل مجموعة تُسمَّى رابطة الشباب جعلها فرعًا للحزب الوطني الزنجباري، ثم أعاد تَسميتها، فأصبحت «حزب الأمة» عندما انفصل عن الحزب الوطني، وكان توقيت انفصاله متفقًا مع اقتراب موعد الانتخابات العامَّة، بعد أن اقتنع بأن أيديولوجيته الشيوعية لا تجد صدى لدى زعماء الحزب الوطني الزنجباري.

وعندما فشل «بابو» في تحقيق أهدافه من خلال الحزب الوطني فإنه أدمج مجموعته مع الحزب الأفروشيرازي للقيام بثورة، واعتقد أنه سيتمكَّن بعد ذلك من التخلّص من الحزب الأفروشيرازي، وفرض النظام الشيوعي تحت قيادته؛ لكن ذلك لم يتحقق؛ لأن أفكار شركائه الآخَرين كانت تتعارض مع أفكاره. وأعلن زعماء الحزب الأفروشيرازي مِن على منصّات الخطابة أنهم سيظلّون في حاجة لخدمات أصدقائهم طالما أنهم لا يملكون الثراء والتعليم. وبذلك أقنعوا هؤلاء الأصدقاء بأن وجودهم سوف يستمر إذا وصل الحزب الأفروشيرازي إلى السلطة. ولذلك أعطوا تأييدهم الكامل لخطط الأفروشيرازي للقيام بانقلاب.

وفي يوم ٧ يناير ١٩٦٤م وصلت إلى دار السلام سفينة اسمها «ابن خلدون» تحمل شحنة عسكرية قيل: إنها متجهة إلى الداخل لاستخدامها في تحرير أفريقيا؛ لكن السلطات في دار السلام ـ بأحلامها التوسعية ـ استخدمت الشحنة لصالح البلد المستقل حديثًا. ولذلك فإن الأصدقاء في زنجبار الذين ظلّوا يسيطرون على القوة الصغيرة المجهزة بالمركبات الميكانيكية في زنجبار قد أعطوا تصريحًا لمعظم الجنود لحضور مهرجان ينظمه الحزب الأفروشيرازي مساء ١١ يناير، وتم ذلك بتنسيق تام فيما بين المجموعات الثلاث المعينة. وقامت سلطات دار السلام بتهريب الجنود والأسلحة واقتحام ثكنات قوة المركبات الميكانيكية التي خَلَت من جنودها ومهاجمة مقر قيادة البوليس بأسلحة من الثكنات ومن دار السلام.

وحاول الرجال داخل مقر البوليس المقاومة؛ ولكن لم يكن لديهم أمل في النجاح ـ فنصحوا السلطان بمغادرة البلاد. فاستقل سفينته بمساعدة بعض المسؤولين المهتمين بسلامته، وبعد فترة غادر دار السلام إلى إنجلترا. وبدأ الصراع على السلطة. فقد كان الأصدقاء يعتبرون أعداء، وبدأ الخبراء

والمستشارون من الدول الشيوعية يتدفقون على البلاد، وبعد أن أقاموا علاقات مع الأهالي فإنهم تجاهلوا «بابو» الذي أتى بهم إلى البلاد، وعملت سلطات دار السلام من أجل إقامة وحدة، وفي النهاية كان مصير بابو السجن في دار السلام، كما حُكِم على كثيرين من أنصاره بالإعدام، وهرب بعضهم من البلاد. أما العرب الذين نجوا من الموت فقد توجَّهوا إلى وطنهم الأم، وأرسل المفوض العام لشؤون اللاجئين بالتعاون مع الصليب الأحمر سعيًا إلى زنجبار لنقل العرب إلى دبي، حيث استُقبِلوا هناك بقلوب مفتوحة.

ولكي نفهم لماذا وقعت الثورة في زنجبار فإنه لا بد من الرجوع إلى التاريخ. لقد رأينا كيف أن الرياح الموسمية التي تهب على المحيط الهندي كانت تدفع العرب إلى القيام برحلات إلى شرقي أفريقيا وإقامة علاقات مع سكَّانه؛ وبسبب تلك العلاقات وجد الإسلام طريقه إلى شرقي أفريقيا، وقد استمرت العلاقات الاجتماعية والثقافية من العرب وبين سكان شرقي أفريقيا سنوات غير أنه من الصعب تتبُّع خطوط تلك العلاقات بدقَّة؛ بسبب ارتباطات الدم بين العرب والإفريقيين. وكان اكتشاف طريق البحر إلى الهند الذي يعود الفضل فيه إلى العُمانيين سببًا في وصول الأوروبيين إلى أفريقيا الشرقية الذين لمسوا عن كثب متانة العلاقات العربية الأفريقية. وقد بذلت تلك الدول قصارى جهدها لخلق شعور من عدم الثقة بين الإفريقيين وبين العرب من أجل تسهيل تقسيم الأرض الأفريقيا فيما بينها. وقد دخل الحكم البرتغالي إلى شرقي أفريقيا عن طريق القهر البالغ والتعذيب، وكان الإفريقيون يلجأون إلى العرب طلبًا للعون، وكان العرب يقدمون يد المساعدة دون شروط لأصدقائهم الإفريقيين فيتمكنون من إلغاء الحكم البرتغال الذي استمر لسوء الحظ في موزمبيق حتى عام ١٩٧٥م. وتأسَّست الحكومة العربية في شرقي أفريقيا بعد طرد البرتغاليين نهائيًا، ثم اقتصرت على زنجبار عندما

بدأت الدول الأوروبية الأخرى «السباق على أفريقيا»، وقد لاَقت هذه الدول صعوبات في تحقيق أحلامها؛ بسـبب الوجود العربـي، ولذلك فقد أخذت تبحث عن وسـائل وأسـباب لإنهاء الوجود العربي هناك، فبـدأت بترويج الأكاذيب، ثم أخيرًا باستخدام القوّة.

ولعل الحاجة لتكثيف الدعاية ضدَّ العرب قد ظهرت عندما رفض السيِّد برغش بن سـعيد سـلطان زنجبار التعاون مع الألمان ضد مصالح شـعب السـاحل في تنجانيقا، ويعود ذلك إلى عام ١٨٨٨م عندما سـيطرت الشركة الألمانية لشرقي أفريقيا رسـميًا الإقامة إدارة ساحل تنجانيقا، وعندما اكتشف الأهالي هنـاك التدفق المفاجئ لأعـداد كبيرة من الأوروبييـن إلى بلادهم، فإنهم نظموا ثورة هاجمـوا خلالها الألمان وذهب الألمان الذين اسـتطاعوا الهرب إلى زنجبار للاحتجاج لدى السـلطان، وكان رد السلطان الذي أجاب به على احتجاجهم، هو أن هؤلاء الأهالي أحرار، وهم ليسـوا عبيدًا لي، ولا يمكنني أن أسـلّمهم إليكم، فهم يتبعونني بمحـض إرادتهم، ولقد أعطيتكم الموانئ بإيجار، لتجمعوا العوائد منها، وإذا كنتم قد أسـأتم معاملة الأهالي فلا تلوموا إلا أنفسكم، وهذا هو ردي عليكم.

ولقد حاول الألمان إقناع السلطان باستخدام القوة لإخماد ثورة الأهالي؛ ولكنه رفض بشدة قائلًا: إن سياسـتنا تقوم على حُسن المعاملة، وليس على القوة في حكم الشعوب.

وعقب هذا الحادث تعـرَّض الأهالي لحصار بحري فرضـه عليهم الألمان والإنجليز لمدة عام تقريبًا، من ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨م إلى أول أكتوبر سنة ١٨٨٩م.

ولم تنته لعبة الاسـتعمار الأوروبي عند هذا الحدّ، واسـتمرت، وانتهت إلى توقيع اتفاق إنجلو ألماني، في برلين، في أول يوليو سنة ١٨٩٠م.

وكان الهدف من هذا الاتفاق هو حمل السـلطان على مشـاركتهم فيما يزمعونه من إجراءات؛ لكن السلطان كان بطيء الرد عليهم، فأمكنهم هذا من النجاح عام ١٨٩٠م، عن طريق التهديد والمؤامرات والمكائد، في جعل شرقي أفريقيا كله، وليست زنجبار وحدها ممتلكات للدول الغربية.

وينتقد بعض الكتّاب سلطان زنجبار، ويحمّلونه، بسبب تصرّفه هذا تبعية ما تلا هذا الموقف من حوادث، وأنه لم يسـتطع الاحتفاظ بقوته في شرقي أفريقيا.

وقد ذكر المؤرِّخ البريطاني، هولنج ورث، أن إنجلترا سـمحت لألمانيا بأخذ خير الأجزاء من ممتلكات السلطان وأنها أخذت لنفسها الباقي.

وأننا لنجد أسبابًا تشكِّك في صحَّة البيان الذي أدلى به (سير فريجسون) وكيل وزارة الخارجيـة البريطانية في البرلمان الإنجليزي يوم ٢٤ يوليو سـنة ١٨٩٠م، من أنه ليـس صحيحًا، أن بريطانيـا فرضت حمايتهـا على زنجبار كوسـيلة لعرقلة نشـاط أي دولة تجارية أخـرى، أو للتدخُّل في سـلطات السلطان.

ويقول وكيـل وزارة الخارجية البريطانيـة: إن السياسـة البريطانية نحو الشـرق خلال الثلاثين عامًـا الماضية لم تكـن تتدخّل في سـيادة الحكّام المحليين؛ ولكنهـا كانت تضمـن لهم ممتلكاتهـم، وتجعلهم أكثـر أمنًا، وشعوبها أكثر سعادة، وفي نفس الوقت يزاول حكّامها استقلالهم.

وإن المرء ليعجب من هذا القول، ولا يمكنه إلا أن يشـير إلى ٧٣ عامًا من عدم التدخُّل في اختصاصات السلطات المحلية، فهي المدة التي زرعت الفِرقة والبغض وأقامت النزاعات والخلاف والتوتر بين أفراد شعب عاش في ظلِّ وحدة وطنية لا ينظرون فيها إلى الأصول التاريخية.

وإن رفض الحكومة البريطانيـة حماية زنجبار أثناء الانقلاب الدموي في يناير سنة ١٩٦٤م بعد شهر واحد من استقلالها من سيطرة بريطانيا التي استمرت ٧٣ عامًا، لهو شاهد أيضًا، ويمكن ربطه بحادث آخَر وقع عام ١٨٨٤م، ففي ذلك العام هاجمت السُّفن الحربية الألمانيـة زنجبار، فلجأ السلطان إلى بريطانيا لمساعدته، فرفضت بريطانيا طلبه.

ويقول المؤرِّخ الإنجليزي الدكتور هولنجزورث، تعليقًا على حادث ١٨٨٤م: «على الرغم من ولاء السلطان برغش لبريطانيا فإنه لم يحصل على أي مساعدة من الحكومة البريطانية عندما واجهته فجأة مطالب الألمان في مطلع عام ١٨٨٥م. ومرة أخرى، فإن كيرك لم يفعل شيئًا لمساعدة السلطان؛ لأن التعليمات التي وصلته من وزارة الخارجية البريطانية أرغمته على إقناع السيِّد برغش بالإذعان لمطالب الألمان».

وهذا نتيجة لاتفاق ألماني بريطاني، على أنه لا بد أن يكون السيِّد برغش ضحية للسباق نحو أفريقيا، مَثَله في ذلك مَثل أي حاكم آخَر في أفريقيا، جنوب الصحراء.

وإن الذي حَدَث بعد ذلك كان مجرد مناورات للتغطية على الخطط الاستعمارية ضدَّ الحكَّام الضعفاء الذين كانوا يجهلون مصائرهم.

ولا يمكن للمرء أن يلوم هؤلاء الحكَّام على الطريقة التي أخضعوا بها أنفسهم ومصالح شعوبهم للاستعماريين، فلقد اعتقدوا صدق المستعمرين في مزاعمهم عن إقامة حكومة مستقرّة، وفرض القانون والنظام، ومعالجة الأمراض وتنمية البلاد، وتطوير الأحوال المعيشية.

ومن وراء هذا المظهر الخادع بدأ الاستعماريون بإرسال البعثات التبشيرية لتهدئة الإفريقيين، وجاء في أعقاب المبشرين إنشاء حكومات

اسـتعمارية، وبالتالي فقد كان من الضـروري أن يتبع ذلك فـرض القانون والنظام وتنمية الأراضي والخدمات الصحية، وهذه كلها كانت شروطًا لازمة لاستغلال المواد الأولية في هذه المستعمرات لصالح المستعمرين.

وبدلًا من أن يسـتخدم الأوروبيون الأهالي في الأعمـال المكتبية فإنهم اسـتوردوا أجانب من دول أخرى لشـل الوظائف الأقل مرتبـة في الجهاز الإداري وتشجيع نفس هؤلاء الناس على احتكار التجارة ولم تفرض الدول الاستعمارية قيودًا على الهجرة إلى تلك البلاد إلا بعد أن بدأ المهاجرون في تهديد مصالح الاستعماريين.

ومهما اختلفت الأسـاليب التي اتبعتها تلك الدول إلا أنها جميعًا كانت تشكِّل فريقًا واحدًا، له سياسة تمليها مصالح مشـتركة، هي الاستحواذ على الأراضي لاستغلال المواد الأولية وخلق أسواق للمنتجات، وكان الدِّين قناعًا يخفي عمليات خدمة المصالح الحقيقية.

ولم تقف فرنسـا مكتوفة اليدين عندما وقع الاتفاق الأنجلو ألماني، وإن كانت قد احتجَّت لانتهاك اتفاقها مع بريطانيا. وكان الاتفاق الأنجلو ـ فرنسي الموقَّع عام ١٨٦٢م يلزم البلدين باحترام استقلال زنجبار، ولذلك طلبت فرنسا من بريطانيا تعويضًا عن ذلك الإجراء. وقد أدَّى الاجتماع الفرنسي إلى توقيع اتفاق إنجلو ـ فرنسي آخَر في ٥ أغسطس ١٨٩٠م ينص على أن تسحب فرنسا بمقتضاه اعتراضها على الحماية البريطانية على زنجبار، وأن تعترف بريطانيا بمطالب فرنسا في مدغشـقر، وبذلك كان الإفريقيون وأراضيهم نهبًا للتقسيم بين الدول التـي كانت تزعم أنها جـاءت كدول صديقـة. وبعد أن نجحت الدول الاستعمارية في تقسـيم شـرقي أفريقيا إلى وحدات سياسية واصلت تقسيم شعوبها إلى مجموعات صغيرة. وكانت هناك ١٧ مجموعة تختص كل منها بمصالحها الذاتية وليس بالمصالح الوطنية.

وخلال الحرب العالمية الثانية سُمح للأهالي من أصل آسيوي بشراء الأرز والسكر والمنسوجات البيضاء، بينما سُمح للإفريقيين بشراء دقيق الذرة والأقمشة السوداء لنسائهم، وكان تجمع الآسيويين أمام مكتب الرقابة على الأغذية مريعًا، فقد كان ذلك الأسلوب تجسيدًا لتطبيق مبدأ فرِّق تسد.

لقد مهَّد نظام الرقابة على التغذية طريقًا لإشاعة الكراهية العنصرية.

ولذلك فإن تتبع جذور انقلاب زنجبار يقتضي تتبع تاريخ الاستعمار نفسه، فقد أتاحت فترة التنافس على أفريقيا فرصًا كثيرةً لزرع بذور الكراهية العنصرية. وقبل عام ١٩٦٤م كان الأعضاء المعينون في المجلس التشريعي الذين يمثِّلون مختلف المجموعات العنصرية هم ٣ عرب و٢ إفريقيون و٢ هنود، وأوروبي واحد، ولم يكن لهؤلاء الممثلين أي نفوذ في المجلس؛ لأن كل السلطات كانت في يد المقيم البريطاني وحفنة من المسؤولين البريطانيين الذين يسيطرون على الشؤون التشريعية. ورغم أن العرب كانوا أقلية فإنهم أعطوا معظم الامتيازات لمجرد إثارة الكراهية العنصرية، والحقيقة أنها لم تكن امتيازات حقيقية؛ ولكنها كانت امتيازات مظهرية.

وقد أدرك العرب في النهاية حقيقة الخَطر وعملوا على تجنُّبه عندما قدَّمت اللجنة التنفيذيَّة إلى الحكومة البريطانية في يونيو ١٩٥٤م قائمة طويلة بمطالب، اعتبرتها مناسبة لتحقيق نهضة سياسيَّة تقدَّم لشعب زنجبار كلّه بصفة عامَّة، وكانت هذه المطالب تتضمَّن الاقتراع العام للبالغين وانتخابات على أساس صوت واحد لكلّ رجل وأغلبية غير رسمية من الأعضاء المنتخبين في المجلس التشريعي ونظام وزاري وملكية دستورية، وكما كان متوقعًا فقد رفضت الحكومة البريطانية المطالب كلها؛ ولذلك سَحَبت المجموعة العربية أعضاءها من المجالس وقاطعت كل اللجان الحكومية وامتنعت طوال ١٨ شهرًا عن التعامل مع الحكومة البريطانية، وناشدت

المجموعة العربية كل المجموعات الأُخرى بتأييدها. وكان ذلك إصرارًا منها على إقرار السَّلام الذي عُرفت به زنجبار في العالَم كلّه، ولقي ذلك الموقف تأييدًا إجماعيًا في البلاد، وكان طريقًا مضمونًا لتحقيق الوحدة الوطنية. ولما كانت الحكومـة البريطانية تُدرك تمامًا نتائج تلـك الوحدة فإنها عملت على هدمها، ودبَّرت حملات سـرِّية لتهديد الجماعات العنصرية الأُخرى ومنعها من وضع يدها في يد العرب. وسـيدهش القارىء إذا علم أن هذه المجموعة المميزة عرَّضت نفسـها لفقد امتيازاتها والنضال من أجـل حقوق الأغلبية، ولقد حدث ذلك في زنجبار. وقد يتسـاءل القارىء. لماذا؟ والسـبب هو أن العرب اتخذوا من زنجبار وطنهم طوال عشرات السنين، والعرب وحدهم هم الذيـن تزاوجوا مع الإفريقيين وعاشـوا معهم إلى حدٍّ أنهـم كانوا يتكلمون لغتهم.

وعندما بلغت المقاطعة العربية شهرها الثامن عشر في ديسمبر ١٩٥٥م فإن مجموعة صغيـرة من الفلاحين الذين أحسّـوا بالأخطار القادمة للسياسـات العنصرية أعلنوا تشـكيل الحزب الوطنـي الزنجباري الـذي ناضل لتوحيد الشعب تحت شعار واحد، هو القومية من أجل التخلّص من السياسات التي سَعَت لتدعيم التقسـيمات العنصرية، وقد شـجعت تلك الخطوة المجموعة العربية التي لم تتـردد في تأييدهم تأييدًا كاملًا. أمـا الوطنيون فقد قاموا من جانبهم بتأييد كل مطالـب المجموعة العربية، وقـام زعماؤهم بالعمل ليل نهار، وزيارة القرى ليشرحوا للشعب أهدافهم الوطنية «وهي الوحدة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية ونبذ العنصرية والاستقلال العاجل»، ووافق الكثيرون وانضموا إلى تلك الحركة.

وأحدثت ضغوط هـذه الأحداث حالة من القلق لدى السـلطات فبدأت حملات ضدَّ المجموعة العربية التي أَصبحت بدورها أكثر قوةً وتصميمًا.

ولقد أرغمت مطالب الوطنيين الحكومة على الموافقة على تخصيص ٦ مقاعد منتخبة من بين الـ٢٥ مقعدًا في المجلس التشريعي، ثم شغل الحزب بالإعداد للانتخابات، ومع ذلك فإن السلطات ومؤيديها المحليين بالإضافة إلى حفنة من الصحفيين لم يوقفوا حملاتهم ضدَّ الحزب الوطني؛ لكن كلما زادوا من حملاتهم كلما زادت شعبية الحزب إلى أن وجدت السلطات أن الحلَّ هو تشجيع وتشكيل حزب منافس على أُسس عنصرية؛ ولذلك تم تشكيل الحزب الأفرو شيرازي في ١٩٥٧م ليدخل الانتخابات في يوليو ١٩٥٧م، ولما كانت السلطات تدرك أن الحزب الوطني يمثِّل التهديد الحقيقي لمركزها فإنها جاهدت لتقويضه، وقد اعترف «بيني» الذي أَشرف على انتخابات ١٩٥٧م في تقريره، بأن مكتب الانتخابات التابع له وموظفي الحكومة كانوا وراء تشكيل الحزب الأفروشيرازي لكي يعارض الحزب الوطني وليس الاستعمار البريطاني.

ويبيِّن تقرير «بيني» نوع الحكومة التي أرادت السلطات إقامتها في زنجبار، ومن الغريب أن نفس هذه السلطات لم تسمح فحسب بل إنها شجَّعت إقامة نظام الحزب الواحد في تنجانيقا المجاورة. وكان حزب الاتحاد الوطني الإفريقي لتنجانيقا هو أول حزب سياسي يشكَّل بها، أما الحزب المنافس الذي شكَّله المستوطنون فإنه حزب تنجانيقا المتحدة؛ لكن هذا الحزب تم حله للسماح لحزب الاتحاد الوطني الإفريقي لتنجانيقا بالبقاء، وحتى الأثاث الفاخر الذي كان يخص الحزب المنحل أُخذ وقُدِّم هدية للحزب الآخَر، وكان سلوك الإدارة الاستعمارية متحيِّزًا بوضوح. وكان أول ضحية في زنجبار لتلك الإدارة هو السيِّد سيف حمود بن فيصل آل سعيد الذي أيَّد الاقتراع العام وفكرة رعايا زنجبار من القومية الزنجبارية والاستقلال الفوري للجزيرة، ورغم أن أي حملة ضدَّ الأُسس العنصرية كانت تُعتبر

مضادة لقانون الانتخاب المُعلن إلا أن الحكومة شجعت الحزب الأفرو شيرازي على القيام بذلك علنًا، بل إنها شاركت في الحملة لصالحه، وذهب أنصار الحزب الوطني الزنجباري إلى صناديق الانتخاب بمنشورات تطالب برفع مستوى المعيشة وتأمينات لكبار السن والعاطلين وتنمية الزراعة واستغلال المصادر الطبيعية وغير ذلك من المطالب؛ لكن أنصار الحزب الآخَر لم يكن لديهم ما يطالبون به سوى تكثيف المشاعر العنصرية والطبقية وتضليل الرأي العام، وأَسفرت الانتخابات عن هزيمة كاملة للحزب الوطني الزنجباري وحصل الحزب الأفروشيرازي على خمسة مقاعد وذهب مقعد واحد لجمعية المسلمين الهنود. وكانت هذه النتيجة مفاجئة للكثيرين الذين يعرفون نشاط الحزب الوطني في شرقي أفريقيا.

وبعد عدَّة انتخابات أُخرى فاز تحالف الحزب الوطني الزنجباري وحزب شعبي زنجبار وبيمبا بأغلبية المقاعد وشكل الحكومة، وحدد يوم العاشر من ديسمبر ١٩٦٣م موعدًا لاستقلال زنجبار، وبعد ذلك بشهر واحد في ١١ يناير ١٩٦٤م وقع الانقلاب الدموي الذي أَنهى العلاقة الطويلة للعرب بالإفريقيين التي استمرت أكثر من ثلاثة آلاف عام وبعد ١٤ عامًا من الثورة أدركت سلطات زنجبار أن السياسة العنصرية ألحقت بها أضرارًا جسيمة، وهي تحاول الآن حثّ العرب على العودة إلى زنجبار والمساعدة في إحياء اقتصاد البلاد.

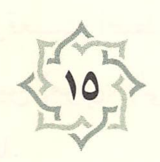
وفي كثير من بلاد العالَم يحظى المقاتلون من أجل الحرية باحترام كبير؛ولكن العرب في زنجبار الذين قاموا بدور بارز من أجل استقلال البلاد وبدأوا التحرك من أجل الاستقلال قد فقدوا كل امتيازاتهم، فهم الذين بدأوا بمقاطعة المجلس التشريعي وكل أوجه النشاط الحكومي من أجل الاستقلال؛ ولكنهم في المقابل عُوملوا كأعداء، وقُتلوا، وعُذِّبوا بلا رحمة، وطردوا من بلادهم مجرَّدين من كل ما يملكون.

ومع ذلك فإن من المستحيل قطع الروابط الاجتماعية مع أهالي شرقي أفريقيا خاصَّة في زنجبار والمُدن الساحلية في كينيا وتنزانيا فإن التزاوج العربي الإفريقي خلق رابطة أبدية وعلاقة ستستمر إلى ما لا نهاية بينهما.

وبعد أن أنفقت سلطات زنجبار الاحتياطيات الكبيرة التي ورثتها عن الحكومة السابقة فإنها أدركت أن الكراهية لا يمكن أن تسود، فالثروة التي حصلت عليها من خلال مصادرة الممتلكات قد أُنفقت بغير حساب وأصبحت البلاد فقيرة في القوة البشرية والاحتياطيات المالية.

والآن فإن الحكومة قد فتحت الباب للمهاجرين الذين يرغبون في العودة وبعثت بوفدٍ خاصٍّ إلى دول الخليج لإقناع الناس الذين طُرِدوا أو هربوا بالعودة إلى زنجبار.





عُمان وعهد ما قبل السلطان قابوس

عندما تولى السيِّد سعيد بن تيمور والد السلطان قابوس الحكم عام ١٩٣٢م كانت عُمان في حالة فقر اقتصادي، فقد كانت الخزينة فارغة تمامًا، قد ظلَّ هذا الوضع قائمًا منذ وفاة السيِّد سعيد بن سلطان الكبير عام ١٨٥٦م، وكان سببًا في تقسيم المملكة إلى دولتين هما عُمان وزنجبار، وكانت تقف وراء هذه الحالة مجموعة من العوامل، مثل تدهور القوة البحرية العُمانية بعد ظهور السُّفن التجارية وتضاؤل الصادرات، بحيث أصبحت كمية صغيرة من السمك والبلح، والاعتماد الكامل في الدخل على العوائد الجمركية، وعدم السداد المنتظم للإعانة المالية التي كانت تحصل عليها عُمان من زنجبار؛ ولذلك لم يكن دخل البلاد يكفي لمواجهة النفقات، ولذلك قرَّر السيِّد سعيد بن تيمور الاعتماد على الدخل الضئيل وموازنة الدخل والإنفاق دون أي عجز مالي.

ولما كان السيِّد سعيد يرفض تفويض مسؤولياته لأي شخص آخر فإنه كان يباشر كل شيءٍ بنفسه حتى إنه عندما لم يكن في وضع يسمح بمباشرة الأمور فإنه يطلب ممن يحب أن تعرض أمورهم عليه أن ينتظروا حتى يتمكن من بحث أمورهم بنفسه، مما أدَّى إلى بطءٍ شديدٍ في تصريف الأمور، وكان عقبة في سبيل تقدُّم البلاد.

ولقد جاء وقت في عام ١٩٥٨م كان لا بد فيه على السيِّد سعيد أن يطلب المساعدة من بريطانيا بعدما وقعت اضطرابات داخلية في عُمان؛ بسبب الإمامة، وأوفدت بريطانيا «جولين إمري» إلى مسقط للبحث مع السلطان في طبيعة هذه المساعدة التي يطلبها.

وقد تم الاتفاق على تبادل الخطابات، وشملت المساعدات تطوير القوات المسلَّحة، والطيران المدني، وتقديم بعض الخدمات للقوات الجوية، وعدَّة مشروعات أُخرى للتنمية الاقتصادية في مسقط وعُمان.

وفي أعقاب توقيع هذا الاتفاق في لندن يوم ٢٥ يوليو ١٩٥٨م أُنشئت قوات السلطان المسلَّحة، وقوات عُمان الجوية، وأما فيما يتعلق بالمساعدة الخاصَّة بالتنمية فلم تكن هناك شروط حول الكيفية التي سيتم إنفاق الأموال؛ ولذلك فإن السلطان قد وضع خططه التي يراها في هذا الشأن.

وفي نوفمبر ١٩٦٤م أعلنت شركة تنمية بترول عُمان أنها عثرت على بترول بكميات تجارية، وأعلنت عن البدء في تصديرها عام١٩٦٧م.

وإزاء هذه التطورات الاقتصادية أبلغت الحكومة البريطانية السلطان، بأنها ستوقف المعونات العسكرية ومعونات التنمية عندما يبدأ السلطان في استلام عوائد البترول.

ولقد كان هذا الدخل الجديد بمثابة الضوء الأخضر الذي يُعلن نهاية الليل الطويل، وبداية الفجر المشرق على عُمان، ولقد بدأ السلطان ببعض المشروعات الهيكلية..

وفي هذه الفترة أَصدر السلطان بيانًا عامًا قال فيه: «أولًا: يجب أن نبدأ ببناء مكاتب لمختلف الإدارات الحكومية، ثم مساكن للمسؤولين الذين سيأتون من الخارج، ثم القيام خطوة خطوة بمشروعات مختلفة، مثل:

المستشفيات، والمدارس، والطرق، والمواصلات، والأعمال الضرورية الأخرى، بما في ذلك تنمية مصادر الثروة الزراعية والحيوانية والسمكية، حتى تمتد المشروعات الحديثة فوق السلطنة كلها وتصل لكل منطقة حسب احتياجاتها، ثم بعد ذلك سوف ندعم الجهاز الحكومي بتزويده بعدد من الخبراء والفنيين نظرًا لأن هناك ضرورة لإحداث تغييرات في الجهاز الحكومي القائم».

وحتى ذلك الوقت كان السيِّد أحمد بن إبراهيم هو الوزير الوحيد في الحكومة، وكانت مسؤولياته هي الإشراف على الشؤون الداخلية والقبلية، وكان السلطان نفسه يعيش في عزلة تامة في صلالة، وكانت المدن الرئيسة تحكم بواسطة ولاة مسؤولين مباشرة أمام وزير الداخلية... وكانت هناك حلقة ربط أخرى في نظام الرقابة الإدارية في الداخل، من خلال الشيوخ (رؤساء القبائل) والشيوخ كانوا مسؤولين أمام السلطان من خلال الولاة، ومن خلال الولاة أمام وزير الداخلية، وكانت الأمور الأخرى تحت رعاية سكرتيرين يرأسون بعض الإدارات.

وكانت الخدمات الاجتماعية من اختصاص إدارة التنمية التي أُنشئت في عام ١٩٥٩م للتصرف في المعونة المقدَّمة من بريطانيا بمقتضى اتفاق عام ١٩٥٨م.

وقد باشرت الإدارة نشاطها في ثلاثة قطاعات، هي الصحة، والزراعة، والأشغال العامة.

وفي مجال الصحَّة أُنشئت عدة عيادات في أنحاء البلاد، وكان يقوم بالخدمة في هذه العيادات ممرضون من الرجال، كما أُقيمت المستشفيات التي يُشرف عليها أطباء، ويعاونهم فيها هيئات تمريض من الرجال.

وكان المستشـفى الوحيد المناسـب هو مستشـفى البعثة الأمريكية في مطرح.

وفي مجال الزراعة أُنشـئت مزرعتان تجريبيتان فـي نزوى وفي صحار؛ ولكنهما لم تحققا نتائج إيجابية بسبب قلة الاعتمادات المالية.

وفي مجال الأشغال العامَّة كان الإنجاز الوحيد هو شق طريق، طوله مائة وخمسون ميلًا، من العذيبة إلى صحار.

وعندما تأكد أن أول شحنة من البترول سوف يتم تصديرها في أغسطس سنة ١٩٦٧م بادرت بريطانيا بوقف معوناتها المالية ابتداء من مارس عام ١٩٦٧ (نفس العام) أي: قبل ستة أشهر من تصدير أول شحنة من البترول.

وأصدر السلطان بيانًا قال فيه: «إننا سـنعتمد خلال هذه الفترة الانتقالية على احتياطياتنا المالية».

وابتداءً من أغسـطس ١٩٦٧م عندما بدأ تصدير البترول حاول السـلطان الوفاء بوعده، وعيّـن في أوائل ١٩٦٦م مستشـارًا كُلِّف بإعـداد وتنفيذ خطة التنمية الإقليمية في مسقط ومطرح. وتم إعداد الخطة بالتشاور مع السلطان، وبعد أن قبلها من حيث المبدأ بدأ العمل بإنشـاء مسـاكن المسـؤولين في الحكومة، والمكاتب، ومكتب جديد للبريد ومدرسة للبنات، ومستشفى في مسقط، ومشـروع للمياه، وكان مشـروع المياه هو أضخم مشـروع وقُدِّرت تكاليفه بحوالي مليـون جنيه، وتضمنت المشـروعات الأخرى مد الكهرباء إلى مطرح ومسقط، وميناء مطرح، وقد أُسـندت إدارة مشروع الكهرباء إلى شـركة خاصَّة غالبية ملَّاك أَسـهمها من التجَّار البريطانيين، وكانت الكهرباء والمياه والميناء هي أكثر المشـروعات احتياجًا لأهميتها ولأنها تعتبر علامة ملموسة على طريق التقدّم، وكانت هناك مشروعات أخرى للزراعة أصبحت

فيما بعد رصيدًا للبلاد تأتي بعد البترول والمصادر المعدنية، ويوضح تاريخ التعليم الرعاية التي بذلها السلطان لتعليم الشعب، ورغم أن التعليم ضروري جدًّا لعُمان إلا أن تقدّمه كان بطيئًا جدًّا في الماضي، وأول مدرسة عامّة أُنشئت كانت في عام ١٩١٤م. وأُنشئت مدرسة أخَرى تُسمَّى السلطانية عام ١٩٢٧م، وقد أغلقت بعد ذلك بسنتين، ثم أُعيد فتحها واستمرت حتى عام ١٩٤٠م عندما افتتحت في مسقط مدرسة جديدة اسمها السعيدية، وفي عام ١٩٥٩م افتتحت مدرسة سعيدية أخرى في مطرح بالاستفادة من المعونة البريطانية.

وفي عام ١٩٦٤م أُنشيء مبنى آخَر ملحق بمدرسة مسقط؛ ولكنه لم يُستخدم على الإطلاق، وكان في كل من المدرستين (مدرسة مسقط ومدرسة مطرح) ثمانية فصول، في كل منها أربعون تلميذًا، ولم يكن مستوى التعليم في هاتين المدرستين أعلى منه في التعليم الابتدائي، ولم يُسمح بإقامة مدارس خاصَّة، وحدث أن بعض التجّار المحليين في صور اشتركوا معًا في تمويل إقامة مدرسة؛ ولكن الأوامر صدرت لهم بوقف المشروع عندما بَلَغت أنباؤه إلى السلطان.

أما الشباب القليلون الذين استطاعوا الخروج من البلاد للتعليم فلم يكن يوثق فيهم بعد عودتهم وكان كثير من الشباب قد خرجوا من البلاد بالطرق القانونية ليتعلموا في الكويت والبحرين والعراق والقاهرة بل وحتى روسيا. وقد تفرّق هؤلاء الذين تخرّجوا قبل عام ١٩٧٠م في كثير من أنحاء العالَم العربي وعملوا مهندسين ومدرِّسين وأطباء.. إلخ.

ولم يكن أحد يستطيع العودة إلى عُمان في ظلِّ تلك الظروف وكان معدل الرسوم الجمركية كبيرًا، ولذلك فإن اقتصاد البلاد كان محصورًا داخل حدودها، فلم تكن الرسوم تُفرض فقط على السلع المستوردة من خارج

البلاد بل أيضًا على السلع القادمة من العاصمة إلى الداخل، وكان معدل الرسوم ٥٪؛ ولكنه رفع إلى ٢٥٪ عام ١٩٢٠م كعقاب للأهالي في الداخل لثورتهم ضدَّ السلطان، ولقي ذلك معارضة قوية من سكان الداخل؛ ونتيجة لذلك جرت مفاوضات بين السلطان وبين الشيخ عيسى بن صالح بن علي كممثِّل للعُمانيين في الداخل والمفوض السياسي البريطاني مستر ونجت كوسيط، وتم توقيع معاهدة في السيب في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠م، وكانت تتضمن ثمانية بنود: أربعة تخص شعب عُمان، وأربعة تخص شعب حكومة السلطان.

والتي تخص شعب عُمان هي:

١ ـ لا يحصل من أي فرد أكثر من ٥٪ بصرف النظر عما إذا كان قادمًا من الداخل إلى مسقط أو مطرح أو صور أو بقية مدن الساحل.

٢ ـ يتمتع العُمانيون سكان الداخل بالأمن والحرية في جميع مدن الساحل.

٣ ـ ترفع كل القيود على أي فرد يدخل أو يخرج من مسقط ومطرح وغيرهما من المدن.

٤ ـ لا تمنح حكومة السلطان حق اللجوء لأي مجرم يهرب من عدالة عُمان الداخلية ولا تتدخل في شؤونهم الداخلية.

والشروط التي تخص حكومة السلطان هي:

١ ـ يتعين على كل القبائل وجميع الشيوخ أن يعيشوا في سلام مع السلطان، ولا يهاجموا مُدن الساحل، ولا يتدخلوا في نشاط حكومة السلطان.

٢ ـ يتمتع بالحرية جميع الذين يذهبون إلى عُمان (الداخل) لأداء أعمال مشروعة أو لنشاط تجاري ولا تفرض أي قيود على التجارة، وينعمون بالأمن.

٣ ـ لا يحق لشعب عُمان الداخل أن يعطي حق اللجوء إلى كل من يرتكب عملًا غير مقبول، أو أي مجرم يهرب إليها.

٤ ـ ينظر في مطالب التجار وغيرهم ضدَّ شعب عُمان الداخل، ويتخذ بشأنها قرارات على أساس العدل، ووفق قواعد الشريعة الإسلامية.

وقد تمت صياغة هذه المعاهدة بغموض متعمد، كما اعترف بذلك الوسيط البريطاني، مستر ونجت، الذي قال: إن الفكرة من المعاهدة كانت دفع القبائل إلى الاعتقاد بأنها تملك استقلالها، وفي الوقت نفسه فإن الحكومة البريطانية تستطيع أن تنفي أي اعتقاد لدى السلطان بأن هذه المعاهدة بشروطها المذكورة تنتقص شيئًا من سيادته على شعب عُمان كله وبلاده.

وعلى أي حال فإن المعاهدة قد أكَّدت أن للشعب العُماني في داخلية البلاد حقًّا تاريخيًّا وعمليًّا يؤثِّر في أسلوب حياتهم، الذي يختلف في بعض جوانبه عن الأسلوب المتبع بين سكان مسقط وبلاد الساحل بصفة عامَّة، كما أكَّدت في نفس الوقت أن الإمام، باعتباره زعيم القبائل الداخلية، له السلطة المطلقة والنفوذ الشامل فيما يتعلَّق بمزاولة حقوقه، ومع كل هذا فلم يكن له في المعاهدة أي إشارة توحي بأن داخل عُمان يُعتبر دولة مستقلّة.

❀ ❀ ❀

لقد بدأ تاريخ البترول في عُمان عام ١٩٣٧م عندما حصلت شركة البترول الدولية من السلطان على حقٍّ امتياز للتنقيب.

وفي عام ١٩٥١م تشكّلت شركة باسم «شركة تنمية بترول عُمان»؛ لكن عمليات التنقيب تعثّرت بسبب الظروف الداخلية في البلاد، فقررت الشركة التوقف عن عمليات التنقيب بعد أن أنفقت عليها حوالي ١٢ مليون جنيه.

وفي عــام ١٩٦١م قرَّر الشــركاء الباقون، وهم، شــل وجليتكيــان القيام بمحاولات جديدة، وفي يوم ٢ نوفمبر ســنة ١٩٦٤م أُعلن عن اكتشاف البترول بكميات تجاريــة في حقول فهــود ونتيح وإيبل، واســتعدت الشــركة لبدء عمليات التصدير التجاري عام ١٩٦٧م، وتم تصدير البترول في أغسطس عام ١٩٦٧م لأول مرة في تاريخ عُمان.

ومن أجــل ضخ البترول تم مد خــط أنابيب طولــه ١٧٥ ميلًا من حقول البترول مارًا بالجبال عبر وادي ســمائل، وينتهي عنــد رصيف ميناء الفحل. وعندما أعلن السلطان مشــروعه للتنمية عام ١٩٦٨م نتيجة لعوائد البترول فإنه وعد بتوجيه اهتمام خاص للشعب المقيم في المنطقة التي يوجد بها البترول، ومع ذلك فلم يتم تنفيذ أي مشروع.

وعاشــت عُمان تحت قانون من قيود عديدة فرضها الســلطان. ولم يكن العُمانيون على الســاحل، خاصَّة الذين يتركزون في مسقط ومطرح، يملكون حرية مد نشــاطهم التجاري إلى الداخل، كما لم يكن العُمانيون في الداخل يستطيعون الحضور إلى المناطق الساحلية للتجارة، باستثناء شراء احتياجات محلاتهم الصغيــرة وبيع بلحهم. وكانــت القيود من العوامــل العديدة التي أثارت سخط الشعب على حكم السلطان سعيد.

وكانت العلاقات مــع الدول الأخرى قاصرة علــى بريطانيا والهند، ولم تكن هناك أي علاقات مع العالَم العربي، كان لبريطانيا والهند قنصل عام في عُمان؛ لكن عُمان لم يكن لها أي ممثِّل فــي الدولتين، وكانت العلاقات مع بريطانيا تحكمها معاهــدة الصداقة والتجارة والملاحــة الموقَّعة عام ١٩٥١م، التي تُعتبــر امتدادًا للمعاهــدة الأصلية لعام ١٧٩٨م، أمــا العلاقات مع الهند فتحكمها المعاهدة الموقعة عام ١٩٥٣م، واعتمد السلطان على تمثيل بريطانيا له في العالَم، خاصَّة في الأمم المتحدة.

أما البلاد الأخرى التي كان للسلطان علاقات دبلوماسية معها؛ ولكن لم يكن له ممثلـون بها فهي: الولايات المتحدة الأمريكيـة، وألمانيا الاتحادية، وفرنسا.

وكانت المعاهدة الأصلية مع الولايات المتحـدة قد وُقِّعت عام ١٨٣٣م، من جانب السيِّد سـعيد بن سـلطان وروبرتس. وتجددت عام ١٩٥٨م؛ لكن الأمريكيين لم يأتوا إلى عُمان خلال عهد السـلطان سعيد بن تيمور. واكتفوا بإيفاد ممثلهم في عدن للقيام بزيارات من حين لآخَر إلى مسقط، ليرى ما إذا كان قد جدَّ جديد.

وبالنسـبة لألمانيا الاتحادية فقد حدث تبادل للخطابات عام ١٩٦٧م على أسـاس المعاهدة التجارية الموقَّعة بين عُمان والألمان عام ١٨٧٧م، ولكن لم تكن لها نتائج عملية في السنوات اللاحقة.

وفيما يتعلَّق بفرنسا فالعلاقات معها تعود إلى أيام نابليون؛ ولكن لم تجر أي اتصالات ذات أهمية خلال عهد السـلطان سعيد بن تيمور. وفي الحقيقة فإن السلطان أوضح عن طريق ممثليه في الأمم المتحدة أن المعاهدات التي وقّعها أسـلافه غير ملزمة له ما لم يتم تجديدها، وكان يريد بذلك أن يوضح أن معاهدة السيب أصبحت لاغية.

ولم تكن للسلطان أي ثقة بالأمم المتحدة، وقد أعلن ذلك، لكي يوضح ـ من خلال الممثِّل البريطاني ـ أن عُمان دولة مسـتقلة ذات سـيادة على كل أراضيها.

وكانت عُمان قد انضمَّت إلى الأمم المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٩م بعد أن طلب السلطان المسـاعَدَة ضدَّ الإمام. وعندما أرسلت له بريطانيا قوات فإنها اتهمـت بالعدوان، وخـلال السـنوات التالية أقنعـت الحكومـة البريطانية

السـلطان، بدعوة الأمم المتحدة لإرســال ممثل عنها إلى عُمان ليرى بنفسه الموقف علـى الطبيعة. وفي ١١ ديسـمبر ١٩٦٢م سـلم المنـدوب البريطاني للسكرتير العام للأمم المتحدة دعوة من سلطان مسقط وعُمان لإرسال ممثل شخصي لزيارة السـلطنة في العام الذي يليه لدراســة الأوضاع عن الموقف هناك على الطبيعة، وقبل السـكرتير العام الدعوة، وعيّن مسـتر روبرت دي ريبينج ممثلًا شـخصيًّا عنه، وغادر نيويورك في ١٨ مايـو ١٩٦٣م، إلى عُمان، وعاد إلى نيويورك في أول يوليو ١٩٦٣م.

وبعد تقديم تقرير دي ريبينج عن الموقف في عُمان إلى الأمم المتحدة، شكلت لجنة مؤقتة لبحث مسـألة تقرير المصير في عُمان. واستقبل السلطان رئيس اللجنة في لندن؛ ولكنه رفض السـماح لأعضائها بزيارة عُمان، إذ لم يكن تقرير اللجنة يرضي السلطان.

ولذلك أصدرت الجمعيـة العامة للأمم المتحدة في ١٧ ديسـمبر ١٩٦٥م قرارًا يعترف بأن حـق عُمان الداخل في تقرير المصير، قـد منع مزاولته من جانب بريطانيا.

وقد صـدر القرار بأغلبية ٦١ صوتًـا ضدَّ ١٨ صوتًا وامتنـاع ٣٢ دولة عن التصويت، وتغيب سـتة أعضاء؛ ولذلك كان هذا القرار نهاية لأي اهتمام من جانب السلطان بالأمم المتحدة.

وفي أوائل عام ١٩٥٧ ناقشـت الجامعة العربية مشكلة استقلال عُمان بعد أن عرضها مكتب الإمامة، وقـد أقام زعماؤه مطالبهم على أسـاس معاهدة السـيب؛ ولكن معاهدة السيب كما شـرحنا آنفًا قد صيغت بعبارات غامضة وبصورة مقصودة؛ وحتى عندما عرضت المشـكلة علـى الأمم المتحدة فإن بعض الدول التي امتنعت قد فعلت ذلك بسبب غموض بنود معاهدة السيب،

وذكر ممثل أورجواي ـ مثلًا ـ أنه امتنع عن التصويت بسبب عدم الوضوح فيما يتعلق بالحقائق.

وقد تضمن تقرير ريبينج فقرة تصف موقف السلطان، وقد تردد قبل أن يبدأ ريبينج رحلته إلى عُمان لمقابلة السلطان، أن مندوب شلي سأل عن عدم إيفاد السلطان ممثلًا عنه إلى الأمم المتحدة ليدفع عن قضيته. وعندما قابل ريبينج السلطان في ٢٤ مايو ١٩٦٣م، فإن هذا الموضوع أُثير، وعندما أجاب السلطان على السؤال فإنه بدأ أولًا بتأكيد سيادته وأوضح بشكل محدد:

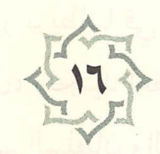
١ ـ أن بلاده ليست عضوًا في الأمم المتحدة.

٢ ـ أنه أبلغ السكرتير العام أن أية مناقشة من جانب الجمعية العامَّة لمشكلة عُمان الداخلية تمثل تدخُّلًا في شؤون بلاده.

٣ ـ أنه لا يرى سببًا في أن يذهب إلى المحكمة ويجلس في مقعد المتهم.

لقد عاشت عُمان في عزلة كاملة خلال عهد السلطان سعيد بن تيمور، ولم يكن ممكنًا أن يتسامح الشعب إزاء ذلك الوضع، فبدأ تدبير تحركات ضِدَّه. وحصلت المعارضة الإمامية على تأييد من الدول العربية خاصَّة من العراق وسوريا والسعودية ومصر والكويت؛ وبعد ذلك قامت جبهة تحرير ظَفَار التي كانت في مراحلها الأولى؛ كحركة انفصالية تسعى من أجل استقلال ظَفَار وتحظى بتأييد الدول الشيوعية، ثم أصبحت في السنوات التالية تمثِّل خطرًا كبيرًا ليس لعُمان فحسب، بل أيضًا لدول الخليج كلها. بعد أن حصلت على تأييد من الدول الشيوعية.

❁ ❁ ❁



١٦
التمرد في ظَفَار

ظهرت فكرة العمل من أجل استقلال الإقليم الجنوبي ـ ظَفَار ـ عن عُمان عندما غادر بعض شباب ظَفَار بلدهم للبحث عن عمل في دول الخليج في منتصف الخمسينات من القرن العشرين، وهناك اتصل هؤلاء الشباب بعناصر عربية من دول أُخرى، فساعدوهم على تدبير خطة للتمرد.

ولم تكن هناك في عُمان سلطة مستقرة في ذلك الوقت، فالمنازعات القبلية أصبحت من المشاكل المتعذِّر حلُّها، وقد اتسع العداء في ظَفَار بين الكثيرين الذين يحتلون السهول ويقطنون فيها وبين الفاراس، سكان القرى، الذين يعيشون في التلال إلى حدِّ نشوب الحرب بينهما. وقد استغل شباب ظَفَار في دول الخليج هذه الأوضاع، وكثرت اتصالاتهم بعديد من العناصر التي تحمل أفكارًا قومية عربية، أو أفكار ماركسية، واستقر رأيهم على تكوين تشكيل فرع ظَفَار لحركة القومية العربية.

وفي عام ١٩٦٢م تشكَّل هذا الفرع باسم: الجمعية الخيرية الظَفَارية، وقد زعم مؤسِّسوه، أن الهدف من هذه الجمعية هو جمع الأموال لبناء المساجد، ولمساعدة الفقراء من المواطنين.

ورغم أن أعضاء هذه الجمعية لم يكونوا متحدين أيديولوجيًا، فمنهم

القوميون، والماركسـيون، والاشـتراكيون، إلا أنهـم جميعًا كانـوا متحدين في معارضتهم لحكم السلطان، ولدور بريطانيا في شؤون البلاد، وقد قاموا وراء ستار الجمعية الخيريـة، بجمع الأموال، وتجنيد أعضاء والقيام بالاتصالات السياسـيَّة بغية القيام بثورة مسلَّحة ضدَّ حكم السلطان والنفوذ البريطاني في منطقتهم.

وتكوَّنـت مجموعة أخرى، تسـمَّى: منظمة جنود ظَفَار. مـن الظَفَاريين الذين يعملون في فـرق الجوالة العُمانيـة، وقد عملوا من أجـل إقامة دولة مستقلة في ظَفَار.

وكانت هناك أيضًا منظمة الشـباب العربي الظَفَاري، التي تكونت، فرعًا لحركة القوميين العرب، وهو الفرع الذي تولى قيادته شـيخ قبيلة الكثيري، مسلَّم بن نوفل الذي كان يعمل من قبل ميكانيكيًا في جراج السلطان.

وفي ربيع ١٩٦٣م وزّعت هذه المنظمة منشورات تحض على التمرّد، كما هاجمت عربات شـركة البترول، وقتلت أحد حراس السـلطان. واعتقل قائد المجموعة لكنه تمكَّن من الهرب وتوجه إلى السعودية، حيث اتصل بالإمام غالب. وذهب من هناك إلى العراق بمسـاعدة السعوديين، حيث تلقى تدريبًا على حرب العصابات وضمٍّ أعضاء آخَرين لمجموعته.

وتشـكلت جبهة تحرير ظَفَار عام ١٩٦٤م من تلك المجموعة، ثم تعاونت معها بعد ذلك ثـلاث مجموعات أخرى هـي: الجمعية الخيريـة الظَفَارية، ومنظمة جنود ظَفَار، والفرع المحلي لحركة القوميين العرب.

وتلقت الحركات مسـاعدات مـن حركة القوميين العرب، والسـعودية، ومصر، والعراق.

وفي إبريل ١٩٦٥م أصيبت الحركة بنكسة خطيرة عندما أُلقي القبض على أربعة من أعضائها في مدن مختلفة في ظَفَار. وقد حَدَّ ذلك من قوّتها. ونتيجة

لذلك عقدت الحركة مؤتمرها الأول في أول يونيو ١٩٦٥م في حَمّرين، في الوادي الكبير بوسط ظَفَار؛ لمناقشة وسائل النهوض بتنظيم الحركة، ولذلك تم انتخاب لجنة تنفيذية من ١٨ عضوًا، أيَّدت مبادىء الكفاح المسلح وأصدرت بيانها الأول بهذا الصدد في ٩ يونيو ١٩٦٥م. وقد ندد البيان بنظام حكم السلطان سعيد بن تيمور، وناشد جميع الظَفَاريين الانضواء إلى التمرد، وأصدر المؤتمر بيانًا سياسيًّا يتضمن التالي:

(أ) إن الطبقات الفقيرة والفلاحين، والعمال، والجنود، والمثقفين الثوريين سوف يشكِّلون العمود الفقري للمنظمة.

(ب) سوف يتم تدمير الوجود الاستعماري بكافة صوره ـ العسكرية والاقتصادية والسياسية.

(ج) وسوف يتم تدمير نظام الحكم المأجور للسلطان سعيد بن تيمور.

وأصبح الهدف الرئيس للحركة من ١٩٦٥م إلى ١٩٦٧م إقامة ودعم وجودها في ظَفَار. وقامت بتقسيم المنطقة إلى ثلاثة أجزاء: شرق وغرب ووسط، وجنَّدت المتطوعين على أُسس فردية؛ لكن عملياتها العسكرية كانت متقطعة، واقتصرت على التخريب والقنص، والكمائن لمواقع الحكومة، على السهل، خاصَّة في طَاقة ومُرباط، وعلى طول طريق صلالة ـ ثمّريت. وكانت أبرز عملياتها في تلك الفترة هي محاولة اغتيال السلطان في ٢٦ أبريل ١٩٦٦م، وقد قام بها جنود ظَفَاريون متعاطفون مع الحركة؛ ولكن الحركة عادت إلى موقع الدفاع في أوائل ١٩٦٧م، فقد واجهت نقص التمويل بعد أن قطعت السعودية مساعدتها عنها.

وتباطأت عملياتها بسبب نقص السلاح، وأيضًا بسبب زيادة الضغط من قوات السلطان، وتشتت قواتها.

وفي ديسمبر ١٩٦٧م، وبعد أن حصلت عدن على استقلالها ـ فإن جبهة تحرير ظَفَار تلقت دفعة هائلة من المساعدات من الدول الاشتراكية من خلال نظام الحكم في عدن.

وعقدت جبهة تحرير ظَفَار مؤتمرها الثاني في حمّرين بوسط ظَفَار في سبتمبر ١٩٦٨م، بهدف توسيع نطاق عملياتها وتنسيق نشاطات جميع مجموعات التمرد المتفرقة في المنطقة.

وقرر المؤتمر أن تتخذ الحركة استراتيجية «العنف الثوري المنظَّمة»، ومبدأ «الاشتراكية العلمية». وكان هذا القرار يعني بداية محاولة تصعيد التمرد القبلي المحلي إلى حركة أيديولوجية وراءها تأييد جماهيري في أنحاء الخليج. وتضمن ذلك تغيير اسم الحركة من جبهة تحرير ظَفَار إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل.

ولم يرض قرار اتخاذ خط أكثر تطرُّفًا بعض الزعماء الأصليين للجبهة مثل مَسلَّم بن نوفل الذي قاد منظمة الشباب العربي الظَفاري، ويوسف العلوي قائد الجمعية الخيرية الظَفَارية، ولذلك تركوا الحركة. وقام المؤتمر الذي حضره ٦٥ عضوًا، بتشكيل قيادة عامَّة جديدة من ٢٥ عضوًا، منهم محمَّد أحمد الغساني سكرتيرًا لها. وبذلك حلّت اللجنة القديمة المكونة من ١٨ عضوًا، والتي شكلت عام ١٩٦٥م، واختير من أعضائها الثمانية عشر ثلاثة فقط كأعضاء في اللجنة الجديدة.

وجدير بالذكر أنه رغم أن السيِّد سعيد بن تيمور قد نجح إلى حدٍّ ما في تقويض النظام القبلي في ظَفَار عن طريق مناورات عديدة، إلا أن القبلية ظلّت مشكلة، بما صاحبها من نزاعات حول حقوق الأرض والمياه وغيرها بين سكان الجبال؛ ولذلك تركزت دعاية الجبهة الشعبية لتحرير الخليج

العربي المحتل خلال تلك الفترة على الجهود لإنشاء نظام الملكية الجماعية للأرض، واللجان الزراعية والمزارع النموذجية، كما زعمت أنها حلّت النزاعات القبلية عن طريق إنشاء لجنة لحلّ المشكلات الشعبية؛ لكن الحقيقة المُرَّة أن كثيرين من رجال القبائل الذين رفضوا التعامل معها قد قُتلوا... وأكثر مدعاة للسخرية، أن مندوبي الجبهة كانوا يفرضون الطاعة عليهم عن طريق تطبيق عقوبات اقتصادية. وعلى سبيل المثال فإن الجبهة استولت على الماشية التي تُعتبر الأساس الاقتصادي لسكان الجبال كي يخضع أصحابها. وقد دخلت الحركة مرحلتها الجديدة بالتخلي عن وضعها الأصلي للثورة القبلية وانتهاج خط أكثر تطرُّفًا للرفاق، وبإقامة اتصالات مع منظمات سياسية دولية، وبخاصَّة تلك المهتمة بمنطقة الخليج، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وتدفقت المساعدات المالية والعسكرية على الجبهة من الصين وكوريا الشمالية ومن الاتحاد السوفيتي، فضلًا عن المساعدات التي كانت تحصل عليها من اليمن الجنوبي، وبذلك أصبحت الحركة مرتبطةً تمامًا بالسياسة الماركسية اللينينية التي ضاعفت بشكل أساسي من خطورة التمرد العسكري في ظَفَار.

وفي نفس الوقت كانت هناك عدة تنظيمات سياسية أخرى في شمالي عُمان، ومن أكثرها نشاطًا، وهي: الحركة الثورية الشعبية في عُمان والخليج العربي ـ الطليعة الثورية لطلبة عُمان والخليج العربي ـ منظمة الجنود الوطنيين في عُمان، وقد اندمجت كل تلك المنظمات في يونيو ١٩٧٠م وكوَّنت جبهة جديدة سُمِّيت الجبهة الوطنية الديموقراطية لتحرير عُمان والخليج العربي، وقد أيدت العراق هذه الجبهة الجديدة، التي زعمت بأنها جزء من حركة التحرير الوطني العالمية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وقد تألف أعضاؤها من بين الشباب العُماني الذين تعلموا في الخارج وتأثَّروا

بالأيديولوجيـات والأفـكار القوميـة، والمتعلميـن الفنييـن، والمغتربين والمتعلمين العُمانيين القدامى المُعَادين للسلطان، وكانت هذه الجبهة مقسمة إلى مجموعتين رئيسـيتين، كل منها من ٣٠ عضوًا تعمـل إحداها في الجبل الأخضر، وتعمـل الأخرى في الشـرقية، ويقع الجبل الأخضـر في المنطقة الجبلية شمال غرب مسقط، بينما تحتل الشرقية المنطقة الجبلية جنوب شرق مسـقط، وكانت هناك مجموعة تخريب صغيرة، قاعدتها في صور، وقد تلقى أعضاء هذه الجبهة تدريبًا علـى حرب العصابات في العراق واليمن الجنوبي والصين، وفي مخيمـات اللاجئين لمنظمة التحرير الفلسـطينية، قرب عَمَّان بالأردن.

وقد شـنت الجبهة الوطنية الديموقراطية لتحرير عُمـان والخليج العربي هجمات على مُدن الداخل، مثل إزكي ونزوى في ١٢ يونيو ١٩٧٠م. وفي إحدى الهجمات التي فشلت اعتقلت مجموعة من تسـعة رجال، أربعة منهم أعضاء في اللجنـة المركزية للجبهة، ثم أعقبت ذلك اعتقـالات أخرى وبخاصَّة بين الكوادر الرئيسـة التي تم اعتقال أفرادها في مطرح يوم ١٨ يوليو ١٩٧٠م، وقد أدى هذا إلى إلحاق ضرر بالغ بعمليات الجبهة في المدن وإلى فشلها في فتح جبهة شـمالية، وهو ما نتجـت عنه أزمة داخـل الجبهة حول الإسـتراتيجية والتكتيـكات، وقد زاد هذا التفكك في الجبهة سُـوءًا فـي ١٠ أكتوبر، عندما بدأت ثورة مضادة في الجزء الشـرقي مـن الجبل احتجاجًـا على تصرفات معينة، منها التعذيب والإعدام، ومن ثم بدأت عمليات انشقاق عن الحركة.

وفي منتصف عام ١٩٧٠م، وهو العام الذي تدهورت فيه الأمور للثوار في الشمال كان الوضع في الجنوب يتحسن بشكل ملحوظ لصالح الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل، فقد سيطرت على الجبال، بينما اقتصر وجود قوات السلطان على السهل الساحلي والمواقع المعزولة في قمم الجبال.

وفي ٢٣ يوليو ١٩٧٠م خلف جلالة السلطان قابوس والده بعد انقلاب سلمي وقع في قصره بصلالة، وكان هذا التغيير البداية التاريخية لتركيز الحكومة طاقاتها بشكل فعال لمواجهة التمرد والعمل على تحقيق التنمية.

لقد جرت محاولة عارضة لإحياء جبهة الشمال أثناء نزاع عمالي في مسقط في سبتمبر سنة ١٩٧١م، وكان قائدها عضو معروف في الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل، وهو محمَّد سالم المعشني، الذي كان يدبر مؤامرات أخرى في مسقط ومطرح، وقد اكتشفت المؤامرة، وقضي عليها في الحال، واعتقل قائدها. أما الذين اشتركوا في الاجتماع فلم تكن لديهم أدنى فكرة عما جرى تدبيره، وكان البعض يصيح مطالبًا بأجر أفضل وظروف عمل أفضل، وعندما حصلوا على تأكيد بأن مطالبهم ستكون موضع الدراسة فإنهم أنهوا اجتماعهم بالهتاف لحياة السلطان.

وفي يونيو ١٩٧٠م أثناء المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل في رخيوت، غرب ظَفَار، أصدرت الجبهة برنامجًا من ٢٩ نقطة، تنص على أن النضال الطويل والعنيد هو الطريق الوحيد لتحرير الخليج، ولكنها لم تستبعد وسائل أخرى للنضال في مناطق المدن والريف.

وفي ديسمبر ١٩٧١م ضمَّت الجبهة المؤسسة، وهي الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل حركة أخرى هي الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي، ونشأت جبهة جديدة تسمَّى الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي.

وعند هذه النقطة كان النضال السياسي يسير متعثرًا فكان لا بد من تصرف عسكري لرفع المعنويات.

وفي ١٩ يوليو ١٩٧٢م حشدت هذه الجبهة الجديدة مائة رجل لشنِّ هجوم

على مرباط في الطرف الشرقي لسهل ظَفَار الساحلي، وكان هذا الهجوم كارثة للمتمردين الذين لُقِّنوا درسًا رادعًا كان في انتظارهم، ففقدوا سبعين قتيلًا. وقد أثر ذلك الفشل على الحملة العسكرية؛ لأن المتمردين أُرغموا على التقهقر إلى الجبال والانسحاب نحو حدود اليمن الجنوبية، وهو ما جعل هذه الجبهة تصبح في موقف الدفاع.

وأَرغمت أحداث مُرباط الجبهة على محاولة تخفيف الضغط في الجنوب بإحياء الجبهة الشمالية.

وفي نوفمبر ١٩٧٢م شاهد أحد المنشقين عضوًا كبيرًا من الجبهة هو محمَّد بن طالب في مطرح فوضعت لذلك قوات الأمن في حالة تأهب، وبعد ٦ أسابيع من المراقبة شنَّت الحكومة عملية شاملة في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢م للقضاء على شبكة التخريب. وقد تمت العملية في خمسة أيام، تم خلالها اعتقال ثمانين شخصًا، منهم ثماني نساء، ومن بين الأسلحة المخبأة التي عُثر عليها بنادق أوتوماتيكية (كلاشينكوف) وبنادق نصف أوتوماتيكية، ومدافع مورتار ٦٠ م.م وبنادق ومسدسات وألغام مضادة للدبابات، وكانت هذه الأسلحة قد شُحنت عن طريق صور التي كانت نقطة تقليدية لتهريب الأسلحة، وفي نفس الوقت الذي تمت فيه تلك الاعتقالات جرت عملية مشابهة في الإمارات العربية المتحدة، حيث كان يجري مراقبة نشاط الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتمل، ونجحت العمليتان في كبح محاولة ثورة مسلَّحة في الشمال، وأُقيمت في يونيو١٩٧٣م محاكمة ستة وسبعين شخصًا، منهم الذين اعتقلوا خلال عملية الخمسة أيام التي بدأت في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢م، وقد حكم على أحد عشر منهم بالإعدام، وعلى الآخَرين بالسجن لمدد تتراوح ما بين ستة شهور ومدى الحياة، وكانت إحدى السيدات التي حكم عليها بالسجن ستة شهور حاملًا، ولذلك أطلق سراحها

بعد ثلاثة شــهور... وبعد أن ضُرِبت الجبهة للمرة الثانية في الشــمال فإنها كانت أيضًا في موقف دفاعي في الإقليم الجنوبي ظَفَار.

وفي عام ١٩٧٤م أصيب المتمردون بضعف خطير؛ بسبب الانشقاقات في صفوفهم وبســبب تواجد قوات السلطان المســلَّحة وقيام مشروعات التنمية الحكومية في المناطق الجنوبية.

وفي يناير ١٩٧٤م عَقدت الجبهة مؤتمرها الرابع الطاريء؛ ولكنها فشلت في الاتفــاق على سياســة عاجلــة وقامت في الصيــف بعمل إعــادة تقييم لإســتراتيجيتها، وفي ٩ أغســطس أَعلن صوت عُمان من مقره في عدن، أن الجبهة أعادت تغيير اســمها إلى الجبهة الشــعبية لتحرير عُمان، وقد حولت الإستراتيجية الجديدة التركيز من النضال العســكري إلى النضال السياسي، وأوضحت أن أداتها الرئيسة ستكون الجبهة القومية المتحدة، وأن الثورة في عُمان يجب أن تكون ثورة مسلحة، وأن تستفيد من العنف الثوري للجماهير للقضاء علــى عنف الاســتعماريين الغزاة وعملائهم المحلييــن، وذكرت أن نضال الجماهيــر العُمانية يجب أن يســتخدم كل وســائل النضال في نفس الوقت، وأن صُورَ النضال الأخرى يمكن تطبيقها في إطار النضال المسلَّح.

وقد جاء هذا التغيير عقب تقرير متشــائم قدم فــي المؤتمر الرابع حول المعدل الكبير للانشــقاقات من الجبهــة والانضمام إلى جانــب الحكومة، ونقص الإمدادات وســوء المواصلات. وأصر مندوبو الجبهــة من البحرين وقطر والكويت بتغيير حاســم في سياســتها مع التركيز علــى جهود تجنيد الشباب المثقف الذين لم تجذبهم الخدمة العسكرية. وقد تردد أن فكرة تغيير اســم الجبهة جاء بناء على نصيحة بعض الحكومات، على أمل أن اســتبعاد دول الخليج سيشجع دول المنطقة على الاعتراف بها وبذلك ينحصر التهديد في عُمان وحدها، وقد أثمر هــذا العمل لبعض الوقت فــي دول مالت إلى

الاعتقاد بأن التهديد الشيوعي هو مشكلة عُمانية بحتة، وغضَّت الطرف عن حقيقة أنه إذا سقطت عُمان ضحية للشيوعيين فلن تبقى هذه الدول آمنة بعد ذلك. ومع ذلك فإنها سرعان ما أيقنت هذا الخطر وبدأت التعاون مع عُمان أو على الأقل في تقديم مساعدات أدبية لها.

ولقد أجبر الأعضاء الظَفَاريون في اللجنة المركزية على ضرورة مواصلة النضال المسلَّح وأدَّى الخلاف إلى ترك الجبهة بدون قيادة فعَّالة في الفترة بين يناير وأغسطس ١٩٧٤م، وكذلك فإن تدهور الظروف الاقتصادية في اليمن الجنوبية قد أرغمها على تركيز النظر في شؤونها عن إشعال الثورة في الدول المجاورة.

على أن النتائج العملية لمداولات ١٩٧٤م استوجبت أن يكون للقيادة الإقليمية للجبهة مزيد من السلطة وحرية التصّرف، وكان هذا يعني أن الوحدات العسكرية التي كانت ما تزال موجودة في ظَفَار يجب أن تترك لها حرية التصرّف حسب ما تراه. وقد عُلم أن العراق عَرضت أن تتولى تنظيم النشاطات التخريبية بدلًا من اليمن الجنوبي في الخليج، ويعود هذا الموقف إلى التنافس بين العراق وبين إيران وليس لقدرات العراق على إشعال ورعاية ثورة دائمة في المنطقة.

وبعد وقت قصير من إعلان الإستراتيجية الجديدة أصبحت شمال عُمان للمرة الثالثة خلال أربع سنوات ميدانًا للتخريب والثورة.

ففي ٢٩ أكتوبر ١٩٧٤م أوقفت سيارة لاندروفر عند محطة تفتيش عسكرية على الطريق قرب الرستاق، فقام قائد المجموعة التي تستقل السيارة بفتح النيران، وَقَتَل أحد الجنود وجرى تبادل لإطلاق النيران قُتِلَ خلاله قائد المجموعة زاهر علي مطر الميهي (المعروف باسم أحمد علي) وكان عضوًا

في اللجنة المركزيـة للجبهة. ووجد الأعضاء الأربعة الآخَرون في السيارة، ومنهم عضو آخَر في اللجنة المركزية، أنفسـهم في مـأزق إذ كانوا يحملون كمية كبيرة من النقود والأسـلحة والمتفجرات، وكان واضحًا أن المجموعة تنوي القيـام ببعض الاغتيالات، وقـد تلقت المجموعـة تدريبها في مخيم للاجئين قرب بيـروت تابع للجبهة الشـعبية لتحرير فلسـطين، وعقب هذا الحادث اعتُقل عدد من الأشخاص بعضهم يشغل مراكز مسؤولة في مكاتب الحكومة والبوليس ووزارة الخارجية والجمارك والإعلام، وكان نجاحهم في التسلل إلى الوظائف الحكومية مصدر إزعاج.

وإذا كان مؤتمر حَمّرين يمثل بداية النضال التخريبي المسلح للمتمردين فإن تولي السـلطان قابوس للحكم يمثل بداية سـقوطهم. فمـن البداية كان هدف قوات السـلطان المسـلحة هو قطع خطوط الإمدادات عن المتمردين وتعقبهم والقضاء عليهم فـي... وحتى عام ١٩٧٠م قبل أن يخلف السـلطان قابوس والده كانت محاولات قوات السـلطان المسـلحة تجاه نشاط الجبهة متعثرة، وكان سهل صلالة الساحلي هو المنطقة الوحيدة الخاضعة للحكومة، بينما كانت المواقع الموجودة في السـهل عرضة للهجمـات التي تقوم بها الجبهة من مناطق مرتفعة، مستخدمة مدافع الهاون ونيران الصواريخ. غير أن الوضع أخذ يتحول تدريجيًا إلى صالح قوات السـلطان المسلحة بعد تولي السلطان قابوس الحكم في يوليو ١٩٧٠م، وهو ما أعطى التحرُّك السياسي قوة في مواجهـة التمرد، وتضاءلـت عملية قصف السـهل إزاء تقويـة المواقع الدفاعية لقوات السلطان المسلحة وهو ما دفع المتمردين نحو الجبل.

وقد سـارت الحرب حتى عام ١٩٧٢م حسـب الدورات الموسـمية ففي فصول الرياح الموسـمية تحقق الجبهة تقدُّمًا على قوات السـلطان المسلحة عندما تكون الجبال مغطاة بالضباب ويصبح من الصعب على قوات الحكومة

تعقب المتمردين. بينما تستطيع قوات السـلطان المسلحة التي تعمل أساسًا من خلال الغـارات الجويـة أن تُرغم المتمرديـن على التزام الدفـاع أثناء المواسم الجافة، وبالنسـبة لقوات السلطان المسلحة فإن الاحتلال الموسمي للأرض كان مسـألة تعتمد على الإمدادات التي كانت غيـر كافية حتى عام ١٩٧٢م، ولم يكن الموقف مشـجعًا لكثير من أهالي الجبال؛ بسبب استمرار أعمال الإرهاب التي تقوم بها الجبهة. وكانت أقوى نقطة في سـمبا وتُعرف رسـميًّا باسـم صرفيت وقد أقيمت في إبريل ـ مايو ١٩٧٢م على الحدود بين عُمان وبين اليمن الجنوبي، وقد تلقت ١٢ ألف طلقة خلال عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣م من المدفعية مـن القوات النظاميـة لليمن الجنوبية؛ ولكن قوات السـلطان المسلحة لم يسـمح لها بإطلاق النار إلى داخل اليمن الجنوبية، استنادًا إلى أن سياسـة السـلطان تقضي بعدم التدخّل في الشـؤون الداخليـة للآخَرين والعمل على إقامة علاقات حُسن جوار معها.

وقد تغير الموقف عـام ١٩٧٤م فقد أصبح التفوّق غالبًا لقوات السـلطان المسلحة، ولم تقع هجمات منظمة باستثناء القصف الموسمي طويل المدى لعدة شـهور من جانب الجبهة. وكانت قوات السـلطان المسـلحة قد نقلت المعركـة للعدو في صيـف ١٩٧٣م وبقيت فـي الجبل خلال فتـرة الأمطار الموسـمية وأقيم حاجز كثيف من الأسلاك الشائكة فيما بين أواخر ١٩٧٣م ويونيو ١٩٧٤م وطوله ٢٥ ميلًا ويمتد من مغسيل في الغرب إلى جزيرة صلالة، وكان الخط مُلغمًا. وقد أدت تلك العملية إلى وقف الإمدادات التي تأتي بها الجمال مـن اليمن الجنوبي إلى وحدات الجبهة شـرق الخـط، وقبل إقامة الخط الحاجـز كان ما بين ٦٠، ٧٠ جمـلًا تأتي من اليمـن الجنوبية محمَّلة بالأسـلحة للمتمردين؛ ولكن منذ أواخر ١٩٧٣م لم تسـتطع أي قافلة جمال الوصول إلى هناك.

وبذلك أصبح المتمردون في القطاعات الوسطى والشرقية معزولين ومحرومين من الإمدادات.

وقد تم اختيار موقع الخط بعناية، فهو يقع عند الحافة الغربية لإحدى مراعي الماشية وهو أكثر سُمكًا في الجنوب عنه في الشمال؛ لأن طرق الإمدادات متعددة في الجنوب. وبذلك اتجهت الجبهة بطرق إمداداتها شمالًا عبر مناطق مفتوحة وأقل تقبلًا لها.

ومن قواعد هذا الخط أخذت قوات السلطان المسلحة تقوم بدوريات يومية وبنصب كمائن ليلية، ونادرًا ما كانت الدوريات تبعد أكثر من ميل ونصف ميل عن قواعدها، ولم تكن هناك هجمات قوية للجبهة في المنطقة لمدة سنتين.

وكلما اكتشفت قوات السلطان المسلحة ثغرة في الخط فإنها تتعقب الذين قاموا بها باستخدام فرق مكافحة حرب العصابات. والخلاصة أن الخط قد ساعد على تقليص طرق الإمدادات من الناحية الشرقية والغربية وأدى إلى إنهاك قوات الجبهة في المنطقتين الوسطى والشرقية، وتحرك المواقع الدفاعية نحو حدود اليمن الجنوبية.

ويعتبر الجبل الشرقي موقعًا هامًّا لعُمان؛ بسبب كثافة السكان ووفرة الماشية، ولقد كان هناك تركيز للعناصر المقاتلة من الجبهة في تلك المنطقة؛ وبسبب الظروف الحرجة للمتمردين في القطاع الشرقي فقد اتخذت الهجمات العسكرية لقوات السلطان المسلحة تنحو نحو تحقيق سياسة ذات شقين، أحدهما للتهدئة، والثاني للتنمية.

وقد ترتب على اتباع الإستراتيجية الهجومية لقوات السلطان المسلحة وإنشاء ذلك الخط تحقيق إنجاز عسكري هام، وهو فتح الطريق الأوسط في

شـهر ديسـمبر سـنة ١٩٧٣م. وهو الطريق الممتد من صلالة إلى ثَمّريت في الوسـط، وهو الطريق البرِّي الوحيد بين مسـقط وصلالة، وكانت الجبهة قد ظلَّت لعدة سنوات تسـيطر على هذا الطريق من خلال الجبل، حتى إنه كان يوصف بالخط الأحمر للجبهة.

وتلبية لطلب من جلالة السلطان قابوس أرسـلت الحكومة الإيرانية قوة تتكون من ١٢٠٠ رجل ظلَّت هناك حتى نوفمبر/ ديسـمبر ١٩٧٣م. وفي ليلة ١٩ ديسـمبر ١٩٧٣م احتلَّت هذه القوة الطريق من الشمال والجنوب، ولم تحدث مقاومة تذكر، باسـتثناء طلقـات متقطعة وعمليات قناصة، وظـلَّ الإيرانيون يرابطون في خمسـة عشـر موقعًا على امتـداد الطريق حتـى وصول قوات السـلطان. وقد غادر الجيش الإيراني عُمان في ١٠ أكتوبر ١٩٧٤م؛ ولكن حلَّ محلَّه غيره في نهاية العام.

وقد أحدث وصـول القوات الإيرانية إلى عُمان بعض الاسـتياء وعدم الارتياح بين بعض الدول الشـقيقة التي اتهمت حكومة عُمان باسـتخدام دول أجنبية لسـحق أخوة عرب. كما اتهمت إيران بالتدخل في الشـؤون الداخلية لدولة مجاورة؛ ولكن عُمان وإيران كانت لهما أسـبابهما المقبولة والمشـروعة للقيام بهذا العمل المشـترك، لوقف التسـلل الشيوعي إلى المنطقة.

وقد شـرحت حكومة عُمان وجهة نظرها لجميع الدول الشقيقة وأشارت إلى خطر التسـلل الشـيوعي ليس على عُمـان وحدها؛ ولكـن على منطقة الخليج بأكلمها. وبذلـك أكدت الحاجة لعمل مشـترك لوقف ذلك الخطر. لكن النداء لقي آذانًا صماء من بعض الدول التي اعتبرت الموضوع مشـكلة عُمانية محضة، وقد تركت لعُمان وحدها مواجهته متجاهلة ما قد يحدث لها إذا ما سيطرت الشيوعية على المنطقة.

ولقد اعتبرت إيران دولة أجنبية في نظـر العرب، رغم أنها دولة خليجية فضلًا عن أنها مسـلمة. لكن عُمان التـي لم تتجاهل هـذه الحقيقة، طلبت مساعدة إيران باعتبارها دولة إسلامية قوية، وجارة لها وتواجه خطرًا مماثلًا.

وفي أول يناير ١٩٧٥م قامت القوات الإيرانية بهجوم على رَخْيوت تؤيدها قوات السلطان المسلحة واشتبكت مع مائتين من المقاتلين الأقوياء التابعين للجبهة غرب المدينة. ولحقت الجانبين خسائر فادحة؛ ولكن نتيجة المعركة كانت السيطرة الكاملة على الطريق الأوسط، وقد رابطت على الخط وحدات من الجندرمة العُمانية، بمعونة إضافية من فرق المتطوعين.

وبذلك فإن التدخل الإيراني قد أنقذ منطقة الخليج كلها من السقوط في أيدي الشيوعية. ولا شك أن فتح الطريق الأوسط قد رفع من الروح المعنوية لأهالـي صلالة، وكانت له آثـار هامّة علـى فتح الجبل ومسـاعدته الإدارة المدنية.

ونتيجة لتلك العمليات عزلت وحدات الجبهة في وسـط وشرق ظَفَار، وتحول دور قوات السلطان المسـلحة من مطاردة العدو وتدميره إلى التنمية المدنية.

وقد أدت هذه السياسـة إلى نتائج حاسـمة في الوسط والشرق، وأصبح معدل الانشقاق عن الجبهة والاستسـلام للحكومة من أفرادها عاليًا، وخلال الفترة من أكتوبر ١٩٧٠م إلى نهاية ١٩٧٤م وصل عدد الذين استسـلموا لقوات الحكومة إلى ألف شخص، والذين قُتلوا إلى ٤٣٣ شخصًا.

وعندمـا تحركت الحكومـة إلى المناطـق التي كانت تخضـع من قبل للجبهة، فإن التركيز زاد على التهدئة على يد فرق عمل مدنية. وفي المناطق التي تتوافر بها آبار المياه، أقامت قوات السلطان المسلحة قواعد ومراكز لها.

وشـملت مثل هذه المراكز: مدرسـة وعيادة، كل ذلك داخـل حاجز دفاعي تحرسه فرق المتطوعين، وكانت هذه المراكز هامَّة لأهالي الجبل؛ لأنها كانت تمثِّل الوجود الفعلي للحكومة في مناطق لم يكن لها بها وجود في الماضي. وفي نوفمبر ١٩٧٤م تم حفر أحد عشر بئرًا.

ومع تقدم عملية تهدئة المنطقـة، زادت أهمية التنمية الاقتصادية للجبل. وكان ذلك يعنـي تحسـين وزيـادة سـلالة الماشـية، والأرض المزروعة بالحشـائش لرعي الحيوانات، وبدأت إدارة تنمية ظَفَار باستخدام سلالة من الأبقار وأنواع من المحاصيل بهدف ربط اقتصاد الجبل باقتصاد سهل صلالة. وكانت الخطة طويلة الأجل تستهدف جعل ظَفَار مصدرًا رئيسًا للأبقار.

وكان مـن الممكن تنفيذ خطة التهدئة بسـهولة من خـلال تعاون قوات السلطان المسـلحة مع قوات مكافحة حرب العصابات المعروفة باسم الفرق الوطنية.

وقد تكونت هذه القوات مـن المتمردين السـابقين، وعملت كنوع من البوليس القبلي. وكانت وحداتها تعمل في المناطق القبلية، وكانت مسـؤولة عن حماية تلك المناطق من نشاط المتمردين. ويتراوح عدد كل فرقة منهم ما بين خمسـين شـخصًا في المناطق التي تـم تطهيرها، ومائة وخمسـين في المناطق التي ما زال يوجـد بها متمردون، وقد أجـادوا أداء عملهم وأصبح معروفًا عنهم، أنهم الوسـيلة الوحيـدة الممكنة لحفظ القانـون والنظام في الجبل.

وبعد أن تم توفير الأمن في طريق صلالة ـ ثَمّريت أصبح الهدف الرئيس لقوات السلطان المسلحة هو استئصال جيوب المقاومة الباقية في القطاعات الوسطى والشرقية من الجبل. وكانت المشكلة العاجلة هي حشد أقصى قدر

من القوة التي تستخدم المركبات، طالما كان المتمردون يتفادون الدخول في معارك مع قوات حكومية متقدمة عليهم.

وقد خفَّ العبء عـن بعض وحدات قوات السـلطان المسـلحة، عندما وصلت قوات أردنية في ربيع ١٩٧٥م لتولي مهمة تأمين طريق صلالة ـ ثَمّريت.

ثم بدأت فترة وجهت خلالها قوات السـلطان المسلحة والفرق ضربات قاتلة ضدَّ قوات التمرد خاصَّة في المناطـق التي طالما وصفوها «بالمجمدة» ويعد أبرزها تلك العملية التي نفذت في منطقة وادي الشوك، التي تم خلالها اكتسـاح مقر القيادة الرئيس للشـيوعيين المعروف باسـم «كتيبـة ٩ يونيو» والاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمعدات. ولأول مرة، اسـتخدمت القوات العُمانية طائرات الهليكوبتر بقوة متزايـدة لنقل الرجال بسرعة إلى العمليات.

واستمر العمل بهذا الأسلوب منذ بداية العام وحتى حلول فصل الأمطار الموسمية، الذي يحدُّ من النشـاط الجوي وغيره من النشـاطات في منطقة الجبل. ولم تتح للعدو أدنى فرصة للراحة، وظلَّت إمداداتهم معرضة للضرب والاستيلاء عليها. ومن الجدير بالذكر أنه خلال العملية التي جرت في وادي الشوك كانت تلتقط رسائل إذاعية من راديو المتمردين تشكو من الجوع قبل أي شيء آخَر، وهكذا تضاءلت مساحات الأرض التي يقف عليها المتمردون في المناطق الشرقية والوسطى، سواءً من حيث العدد أو الفاعلية.

وفي ١٥ أكتوبر ١٩٧٥م تحركت وحدات الهجوم التابعة لقوات السـلطان المسـلحة من صرفيت زاحفة جنوبًا إلى السـاحل، وفي اليوم الثاني وصلت إليها التعزيـزات من وحدات أخرى، وقد نجحت من خلال سـيرها ليلًا في السيطرة على جميع طرق إمدادات العدو في المنطقة.

وفي ١٧ أكتوبر تم تعزيز تلك الوحـدات بالمدفعية في صرفيت وقامت بمهاجمة موقع العدو في حوف باليمن الجنوبية، ودمرت مواقعه العسكرية ومدفعيته. ولجأ المتمردون عندئذ إلى قريـة ضلكوت التي كانت آخَر مكان يلجأون إليه قبل إنزال الهزيمة الكاملة بهم.

وفي ٢٩ نوفبر ١٩٧٥م بدأت عمليات التطهير ضدَّ المتمردين على الجانب الغربي للجبل. واستولت قوات الفرق الوطنية على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة من المتمردين خلال تلك العمليات التي حققت نجاحًا كاملًا.

ثم جاء اليوم الكبير، ففي الساعة التاسعة والدقيقة السادسة والثلاثين من صباح يـوم الاثنين أول ديسـمبر ١٩٧٥م، وبعـد أن تم اكتسـاح الإرهابيين الماركسـيين تمامًا من غربي ظَفَار، وجهت قوات السـلطان المسلحة ضربة نهائية كاسـحة لآخِر معاقل العدو فـي منطقة ضلكوت السـاحلية؛ وبذلك جاءت نهايـة آخِر موقع حصين للمتمردين، وأصـدرت القيادة العامَّة لقوات السلطان المسلحة بيانًا عسكريًّا يعلن:

«حققت قوات السلطان المسـلحة والقوات غير النظامية انتصارًا حاسمًا، وقضت على عصابة الماركسـيين الإرهابيين في المنطقـة الغربية من ظَفَار، وهي الآن تفرض سيطرتها الكاملة على كل شبر من الأرض في هذه المنطقة المتاخمة لحدودنا مع اليمن الجنوبية، وإن قوات السـلطان المسـلَّحة التي رفعت أعلام النصـر فوق جبال ظَفَار قد أَبلغت الأنباء السـعيدة بنصرها إلى قائدها الأعلى جلالة السـلطان قابوس، وتنتهز هـذه الفرصة لتجديد عهدها لجلالة السلطان قابوس بالدفاع عن الأرض العُمانية، وحماية المكاسب التي حققها الشـعب العُماني تحت قيادته الحكيمة، وإن قوات السلطان المسلَّحة والفرق الوطنية تهنىء الشعب العُماني بأكمله بهذا النصر الحاسم، الذي كان يتطلع إليه منذ وقت طويل، الـذي ناضل من أجله بـكل قواته في مواجهة

الوسـائل الإرهابية والعصابات الماركسـية التي تؤيدها الحركة الشـيوعية العالمية، وإن قوات السلطان المسـلَّحة والفرق الوطنية تؤمن بأن هذا النصر سـوف يدفع عجلة التنمية إلى الأمام، وأن آثاره سوف تنعكس بوضوح على مختلف مجالات التنمية والتقدم التي تشـهدها السـلطنة في عصر ازدهارها الحاضر، وسـوف تظلُّ قواتنا المسـلحة الباسـلة الدرع الذي يحمي بلادنا، ويردع أي محاولة من الجيوب الشيوعية ضدَّ بلادنا الحبيبة».

وقد سُئِل جلالة السـلطان قابوس من مراسـلي صحيفتي صنداي تايمز الإنجليزية، وواشنطن بوست الأمريكية في ١٦ يناير ١٩٧٦م، عما إذا كان يرى أن هناك احتمالًا في عودة المحاولات الشيوعية للتسلل من جديد إلى عُمان.

فأجـاب: «بأنه لا يوجـد أي احتمال مـن ذلك على الإطـلاق، فالذين انضمُّـوا إلى المتمرديـن يدركون الآن أن السـلطنة توفـر كل فرصة للتقدم والرخاء للشعب العُماني وأنهم جميعًا قد عادوا، بالتالي ليقوموا بدورهم في بناء بلادهـم رافضين محـاولات النفوذ الأجنبـي لدفعهـم لمواصلة إثارة المتاعب».

وفيما يتعلَّق ببقاء قوات إيرانية بعد أن انتهت الحرب قال جلالته: «إنهم باقون بسبب الموقف العدائي من اليمن الجنوبية، وأوضح جلالته للصحفيين بأن هناك عددًا كبيرًا من الكوبيين والألمان الشـرقيين في القوات المسـلحة لليمن الجنوبية وقوات الأمن فيها».

وفي يوم الخميس ١١ ديسمبر سـنة ١٩٧٥ زحف موكب ضخم يضم مائة ألف شـخص من روي لتحية جلالة السـلطان قابوس في استاد القرم وألقى جلالتـه خطابًا في جموع الحاضريـن الذين كانوا يهتفـون ويرقصون خلال مسـيرتهم ويهتفون: «عاش السـلطان، وعاشت قوات السـلطان المسلحة»

احتفالًا بالنصر الذي حققته قوات الســلطان المســلحة في المنطقة الجنوبية وطهرت به البلاد من المتسللين الشيوعيين.

وقد خلقت هذه المسيرة مَشــهدًا لم تره عُمان، لقد كان موكبًا جماهيريًّا اشترك فيه الجميع من كل أبناء الشــعب، وقد أظهر فيه الشعب فرحته بنصر قوات السلطان المسلحة على العدو في أول ديســمبر ١٩٧٥م، وبعد ذلك تم إعلان يوم ١١ ديسمبر رسميًّا كيوم للجيش.





وساطة الدول الشقيقة

جرت محاولات غير ناجحة للتوفيق بين عُمـان واليمن الجنوبية، وكان جلالة السلطان قابوس يرحب دائمًا بأية مبادرة من أي وسيط لتسوية الخلاف مع اليمن الجنوبية انطلاقًا من سياسة حكومته الخاصّة بإقامة علاقات أخوية طيبة مع الدول المجاورة، وبعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة.

وفي عام ١٩٧٣م قامت الكويـت بمحاولة لإقناع اليمن الجنوبية بالتخلي عن تأييدها للجبهة الشعبية لتحرير عُمان؛ ولكن المفاوضات تعثرت... وفي مايو ١٩٧٤م زار وفدٌ من أحد عشر عضوًا من الجامعة العربية عُمان. وكان هذا الوفد يضمُّ ممثليـن من الجزائر وتونس وسـوريا والكويـت وليبيا ومصر، ويرأسـه الأمين العام للجامعة العربية، ولم يسـمح للوفد بزيارة عدن، وقبل ذلك بعدة أسابيع بدأ أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير عُمان حملة دعاية، حيث أوفدوا وفدًا يضمُّ محمَّد عبدالله حسـين (اللجنة المركزية) وعيسـى عبدالله (العلاقات الخارجية) لزيارة بغداد ودمشـق والقاهرة والجامعة العربية، كما قابل الوفد قادة الحزب الشـيوعي اللبناني ومنظمة التحرير الفلسـطينية في بيروت.

وأخذت المملكة العربية السـعودية المبادرة في السبعينات لإقناع اليمن الجنوبية بوقف تأييدها للجبهة... وبدا أن الأمور تتجـه اتجاهًا طيبًا؛ ولكن

المراقبين فوجئوا برئيس وفد اليمن الجنوبية في مؤتمر قمة عدم الانحياز في كولومبو، في أغسـطس ١٩٧٦م يعلن بوضوح: أن حكومته لا يمكن تحت أي ظرف من الظروف أن تكون على وفاق مع عُمان، وأنها سـتواصل تأييد أي حركة تعمـل ضدَّ حكومة عُمان، ثم كرر نفس الشـخص هـذا التصريح في الجمعية العامَّة للأمـم المتحدة في دورتها الحاديـة والثلاثين في نيويورك، وفي نوفمبر عام ١٩٧٦م أعلـن وزير خارجية اليمن الجنوبيـة في باريس أن علاقات حكومته مع السعودية ليست لها علاقة بموقفها ضدَّ عُمان، ثم أعيد تأكيد موقـف عدن المعادي لعُمـان بعد ذلك فـي كل الاجتماعات الدولية والإقليمية. ومـع ذلك فقد فتحت عُمان أبوابها وما زال شـعبها يأمل، مثلما كان دائمًا، في أن تغير اليمن الجنوبية مسـلكها وليـس هناك ما يمنع من أن تعيش في علاقات أخوة وحسن جوار مع عُمان.

لكن ذلك ما زال يبدو حلمًا بعيدًا جدًّا ما دامت اليمن الجنوبية مستمرة في ولائها للنفوذ الأجنبي الذي يملي عليها سياسته الحمراء.

❁ ❁ ❁



عهد السلطان قابوس

انقشع الليل الطويل عن عُمان في ٢٣ يوليو ١٩٧٠م عندما أشرق الفجر الذي انتظره الشعب طويلًا ليفسح الطريق للشمس المشرقة معلنة تصميمها الأكيد على أن تشرق فوق عُمان إلى الأبد.

وخلال ذلك الليل الطويل عاش شعب عُمان داخل بلاده وخارجها يتذوق مرارة الحياة التي كانت لا تفرِّق بين المتعلم وغير المتعلم، ولا بين الشاب والكهل ـ أو بين الرجل والمرأة ـ لكنها أصابت الجميع أيًّا كانوا، وخلال ذلك الليل الطويل تعوَّد العُماني أن يعتبر حقائق الحياة خيالات والخيالات حقائق، حتى دفنت الحقائق في عقله وأصبح يعتقدها مجرد أحلام وسراب لا يمكن الوصول إليه..

وفي الحقيقة فإن العُماني قد عَرف الكثير وفهم الفرق بين النظرية والحقيقة، وبين الطيب والخبيث، وبين الأقوال والأفعال. ولقد قيل الكثير عن شعب عُمان منذ قديم الأزل؛ ولكن الكثير سوف يقال عنهم بعد أن تولى السلطان قابوس الحكم. ولقد كان السلطان قابوس نفسه ضحية لعزلة طويلة، وعمل من أجل ذلك اليوم الذي يتولى فيه مسؤولية أمور البلاد، فلم يكن يستطيع أن يتحمل طويلًا استمرار الحياة البائسة لشعبه؛ ولذلك وقف في يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٠م وأعلن لأمته، أنه جاء لإنقاذهم، وليضعهم على قدم المساواة

مع شـعوب الدول الأخرى المتقدمة في أقرب وقت ممكن، وشـعر شـعبه بارتياح عظيم. وكان أول ما فعله جلالة السـلطان هو تغيير اسـم للبلاد من سلطنة مسـقط وعُمان إلى سـلطنة عُمان، ورغم ما يبدو من بساطة في هذا التغييـر إلا أن له معنى سياسـيًا عميقًا، ولـم تعد البلاد مقسـمة بين عُمان الداخل والسـاحل، أو إلى شـمال وجنوب، وفي أعقاب تلك الخطوة عمل جلالة السـلطان قابوس على الوفاء بوعده، وبدأ فعلًا فـي تنفيذ ما وعد به. وجرى تغيير مذهل وبدأ شـبح الماضي يتلاشـى، وبدأت البلاد تزحف إلى الأمام بحماس، وإصرار مدهش، وفي مقدور أي إنسـان أن يشـاهد التقدم الذي حدث في كل مجالات البلاد.

ولم يكن ذلك بالعمل السهل وبخاصّة وأن شبح الشيوعية المخيف كان ما يزال يركز نظراته على البلاد.

ورغم أن جلالة السـلطان قابوس قد آلت إليه تركـة مثقلة من المتاعب والمشـاكل؛ لكنها أضافت مذاقًـا إلى تصميمه القوي على رفع شـأن بلاده وشـعبه من زوايا النسـيان الذي ظلّ يخيم عليه لعدد من السنوات إلى عالم الوجود المتحضر.

وقبل عام ١٩٧٠م لم تكن في البلاد سـوى ثلاث مـدارس وكلها للبنين تضمُّ ٩٠٠ تلميذًا، وكانت هناك مدرسـة صغيرة للبعثة الأمريكية بها خمسون تلميذة وثلاث مدارس صغيرة أخرى للطائفة الحيدربادية في مطرح ومدرسة تجارية فنية لموظفي شركة البترول، وكانت كلها قطرة في محيط الأمية.

وكانت الحاجة شديدة للتعليم من أقصى شمال البلاد إلى أقصى جنوبها، وكان الناس مـن كل الأعمار وبعضهم مـن المتقدمين في العمـر نوعًا ما، يسيرون أميالًا للذهاب إلى المدرسة.

وبالتأكيد، فإن التعليم هو العمود الفقري للتنمية، ثم هناك أيضًا أهمية الصحة، والمواصلات، والدفاع، والموانىء، والمطارات والإسكان إلخ. وتلك قائمة لا تنتهي.

ولقد أعطي التعليم والصحة الأولوية القصوى. فبدىء في تنفيذ مشروع لبناء ثلاث عشر مدرسة ومستشفى، ثم بدأ العمل فيه في الحال. وفي عام ١٩٧٠ كانت هناك ثلاث مستشفيات فقط في البلاد كلها، اثنتان تديرهما البعثة الأمريكية وواحدة تديرها شركة البترول. كما كانت هناك عيادة ملحقة بالسفارة البريطانية، وفي داخل البلاد لم تكن هناك غير عيادات صغيرة يديرها أشخاص مدرَّبون كانوا يشنون حربًا بلا هوادة على المرض والجهل. وعندما زاد عدد المستشفيات كان هناك تركيز على تدريب الشباب العُماني، في الداخل والخارج في مجالات الصحة؛ كأطباء وممرضين ومفتشين صحيين، ومساعدين للمختبرات.

وفي مجال التعليم كان الهدف الأول هو تعليم أكبر عدد ممكن القراءة والكتابة؛ ولذلك فإنه بالإضافة إلى ما فعلته وزارة التعليم في مجال التعليم الرسمي فإن جميع الوزارات الأخرى أدخلت مشروعات التدريب المختلفة. كذلك لعبت القوات المسلحة دورًا هامًا ليس في المجال الأكاديمي فقط؛ ولكن أيضًا في مجالات علم الصحة وغيره. وفي الحقيقة قد تلقى الشعب دروسًا في التعليم، في المدارس والبيوت والخيام بل وتحت الأشجار.

كذلك تركز الاهتمام على الجيش والقوات الجوية. الرجال والإمدادات والطائرات إلخ، وهذا بالإضافة إلى كثير من قوائم الأولويات لمختلف الوزارات، وقد أنفقت ميزانيات الوزارات كلها، وخاصَّة أنه لم تكن هناك مساعدات تأتي من الدول التي يعتمد أمنها على نتيجة الحرب في ظَفَار، ومع ذلك فقد زادت عددًا وقوةً، قوات السلطان المسلحة، وقوات السلطان

الجوية، ويمكن لعُمان اليوم أن تعتبر نفسها في مركز قوي يسمح لها بحماية حدودها الوطنية ضدَّ أي نوع من أنواع التدخل الأجنبي.

ففي مجال الاقتصاد، تعلق عُمان أهمية كبرى على تنمية الزراعة، فعُمان تعتبر دولة زراعيـة بعكس الدول المجـاورة لها. وتسـتثمر الحكومة عائد البترول في القطاع الزراعي.

ويشمل ذلك تحسـين الأرض المنزرعة، وإقامة محطات تجريبية لإرشاد المزارعيـن، وتنويـع الحاصـلات الزراعية، وتحسـين الموارد السـمكية، واستخراج المعادن.

وفي مجال المواصلات تحقق الكثير في شـق الطـرق، وبناء الموانىء والمطـارات ومكاتب البريد، وشـبكات المواصـلات التليفونية التي تخدم المصالح الوطنية والدولية.

وقد احتلت عُمان اليوم مكانها كدولة هامَّة وسط دول العالم. وهي عضو بالأمم المتحدة، والجامعة العربية، ودول عدم الانحياز، وكثير من المنظمات الدولية.

وتحمل الزراعة والثروة السـمكية إمكانيات هائلـة وبخاصَّة وأن ٧٠٪ من السكان ـ الذين يقدر عددهم بـ١,٥ مليون نسمة ـ يعتمدون في معيشتهم على هذين القطاعين. وتعطي الحكومة أولوية كبـرى لتنميتها على نطاق واسع. فالساحل العُماني يمتد مسـافة ١٧٠٠ كيلومترًا، وتصدر عُمان حاليًّا الأسـماك لجاراتها. وقد حدث ذلك نتيجة لأول مشـروع جرى تخطيطه لتصدير الأسـماك على نطاق واسـع. وللحكومة هدف بعيـد المدى هو استيعاب طاقة البلاد لتصنيع الأسماك، وإنشاء الأسطول التجاري العُماني. ولقـد زودت الحكومة الصيادين بالمحركات الآلية لقـوارب الصيد، أمانًا

لهم في أداء أعمالهم، ودفعًا لطاقاتهم العملية في الإنتاج وزيادة الثروة السمكية.

وبالنسبة للزراعة، تهدف الحكومة إلى تحقيق اكتفاء ذاتي في كثير من المنتجات الزراعية بقدر الإمكان.

وهناك هدف بعيد المدى أيضًا وهو تصدير المنتجات الزراعية على نطاق واسع. وسوف يحظى محصول البلح ـ أهم المنتجات الزراعية العُمانية ـ باهتمام بالغ. إلى جانب السلع التقليدية الأخرى مثل الليمون وجوز الهند، ولكن سوف يكون هناك تحوّل إلى التركيز على مجالات أخرى من المنتجات المربحة مثل الدواجن، والقمح، والخضروات.

وما زال التصنيع الزراعي مقصورًا على مصنعين بطاقة إنتاجية تبلغ عشرة آلاف طن في السنة، وهما مصنع منتجات الألبان، ومطحن الدقيق. ويصدر فائق إنتاج كلٍّ منهما حاليًا لدولة الإمارات العربية. ولا شك أن إنتاج هذه المشروعات سوف يخفض بقدر كبير من الواردات الزراعية. وفي الأجل الطويل وعندما يتم التغلب على المشكلات الراهنة. فإن الزراعة وصيد الأسماك سوف تكونان عماد الدخل أكثر مما يمثله البترول والمعادن.

وفي مجال الصناعة فإن المشروع الذي يعمل الآن على نطاق واسع هو مصنع الإسمنت.

ويوجد مشروع آخَر يعمل الآن، هو خط أنابيب الغاز الممتد من حقول البترول الشمالية إلى الساحل، وسوف يكون مصنع الإسمنت من أكبر المستفيدين منه؛ لأنه يستخدم الغاز. كما أن هذا الخط يغذي محطة تحلية مياه البحر، ومحطة الكهرباء في منطقة العاصمة. وربما يتم مد خط الأنابيب أيضًا شمالًا إلى جبال صحار لتزويد منطقة مناجم النحاس بالطاقة.

كما تم إقامة عدد كبير من المشروعات الأصغر حجمًا في نفس الوقت، تقوم بعمل صناعات خفيفة، هدفها إنتاج سـلع بديلة للـواردات خاصّة في مجال الإنشاءات. ومنها مصانع الأثاث، ومنتجات الألومنيوم، والمشروبات الخفيفة، والغازات الصناعية.

ومن المتوقـع أن تمضي عُمان في الأجل الطويل في تنفيذ مشـروعاتها المؤجلة في مجال البتروكيماويات، مثل مصنع المخصبات الزراعية، خاصّة إذا توافر لها المستوى المرتفع من الدخل عن طريق إضافة دخل المعادن إلى الدخل الحالي للبتـرول. ومن المرجـح أن يتجه التركيز إلـى الصناعات، اعتمـادًا على مصـادر عُمـان المعدنيـة غير المسـتغلة، فهنـاك النحاس، والاسبستوس.

وعُمان مشـغولة للغايـة بمحاولة اكتشـاف مزيد من البتـرول من أجل المحافظة على المسـتوى العالي للتنميـة. ورغم الإنجـازات الكبيرة التي تحققت في مجال التنمية، إلا أنـه ما زال هناك الكثير لإنجـازه بالنظر إلى الاحتياجات العديدة للبلاد. وقد بدأت مصادر دخل الحكومة تتسع؛ لكن ما زال الاعتماد الأساسي على البترول.

وكان إنتاج عُمـان من البترول قد هبط من ١٣٩ مليون برميل سـنويًا في عام ١٩٧٦م إلـى ١١٨ مليون برميل في عـام ١٩٧٨م، لكـن الحكومة متفائلة بإمكان إنتاج كميات أكبر في الثمانينات.

وتُعتبر الثروة المعدنية الجانب الأكثر إشـراقًا بالنسبة لمستقبل الاقتصاد العُماني، بجانب الزراعة والثروة السـمكية. وتقدّر الاحتياطيات الحالية بـ١٢ مليون طن؛ لكن عمليات التنقيب المقبلة سوف تكشف عن مستودعات أكبر. وقد عثر على مسـتودعات الكـروم، والرصاص، والزنـك، والنيكل، وخام

الحديد، ومعادن أخرى. وعثر في الجبال القريبة من صحار على مستودعات للمنجنيز وهناك بشائر العثور على الفحم في هذه المنطقة أيضًا.

وفي ظَفَار اكتشف المنقبون الألمان الغربيون مستودعات للفوسفات.

وهناك اعتقاد كبير بأن عُمان ستصبح دولة رئيسة في إنتاج المعادن في الثمانينات. وإذا استطاعت عُمان أن تنتج الكمية المقدرة وهي ٣٠٠٠ طن من النحاس يوميًّا في عام ١٩٨٣م، فإنها ستصبح بذلك من أكبر الدول المنتجة للنحاس مثل زامبيا وشيلي.

«وليس من شك في أن الروح الدافقة الوثَّابة، والنظرة الواعية الصائبة لجلالة السلطان قابوس المعظم لا بد لها أن تؤتي ثمارها الطيبة، خيرًا وفيرًا، ونهضة شاملة للشعب العُماني.

وإن التاريخ ليسجل للشعب العُماني نشاطًا محمودًا ومذكورًا في شتى المجالات، يمتد إلى منابت الحضارة الإنسانية الأولى، وتتفرع غصونه على مدى العصور، مما يؤكد أنه للعُمانيين طاقات موفورة مذخورة، ستنبثق منها حتمًا وثبات قوية مضيئة في مسيرة النهوض الحضاري التي يقودها بفتوة ونشاط جلالة السلطان قابوس آل سعيد».

❊ ❊ ❊

ثبت المراجع

بالإضافة إلى معلوماتي الخاصَّة وخبراتي فقد رجعت إلى عدد من المصادر التالية:

- تحفة الأعيان، تأليف: الشيخ عبدالله بن حميد السالمي.
- مذكرات الأميرة سالمة، ترجمة: عبدالمجيد حسيب القيسي، سنة ١٩٧٤م.
- مسقط وعُمان، تأليف: إيلان سكيت سنة ١٩٧٤م.
- الحكم البرتغالي في شرقي أفريقيا، تأليف: جاستوس استراندرز، سنة ١٩٦١م.
- موجز تاريخ الساحل الشرقي لأفريقيا، تأليف: ل. و. هولنج سوورث، سنة ١٩٢٩م.
- العقيدة وقلعة المسيح، تأليف: مبارك بن عاطي الحناوي، سنة ١٩٥٠م.
- البحث عن الماضي، تأليف: كويزي ماك كاستر مارتن، واسموند برادلي مارتن، سنة ١٩٧٣م.
- تبسيط تاريخ شرقي أفريقيا، تأليف: هـ برتن، وب. ج. ج ربلي، سنة ١٩٦٣م.
- عُمان في تقرير خاص، مقدم من ميد سنة ١٩٧٦م.

وبالإضافة إلى ذلك رجعنا إلى تقارير عديدة كتبت عن الصحوة السياسية ونتائج الانتخابات التي أُجريت في زنجبار عند إعداد مخطوطة هذا الكتاب.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الطوائف والجماعات

فهرس الأماكن والبلدان

ش

ن

هـ

و

فهرس المصطلحات الغامضة

المحتويات


تم بحمد الله

